قراقورم – حاضرة المغول

(دراسة تاريخية وحضارية)

دكتــور

صـــلاح الدين محمـــد نـــوار

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المساعد

كلية دار العلوم – جامعة الفيوم

قراقورم – حاضرة المغول

(دراسة تاريخية وحضارية)

توطئة

لا يعدو بحث قراقورم – حاضرة المغول (دراسة تاريخية وحضارية) إلا أن كون محاولة متواضعة للغاية من جانبنا للكشف عن نواح مهملة فى التاريخ السياسي الحضارة لبعض مدن أسيا الوسطي وإقليم منغوليا وعلى رأسها مدينـــة قراقــورم. هى من المدن التى لم تحظ بأى اهتمام من قبل المؤرخين القدامي والمحدثين، ولـــم تخصص لها دراسات مستقلة قائمة بذاتها، ومن هنا جاءت صعوبة هــذه الدراســـة، خاصة إذا كان حقل الدراسة بالنسبة للباحث خارج نطـــاق جغرافيتـــه البـــشرية أو جغرافيته الإقليمية التى يتواجد فيها، ومقتحماً ميدانا لم يقتحم من قبل على الإطـــلاق بغية الوصول إلى معرفة الحقائق التى تخص تاريخ هذه المدينة التى كانت حاضرة أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ العصور الوسطي أو التاريخ الإسلامي (بعد الدولـــة الإسلامية) شملت معظم قارة آسيا وأوربا، وكادت أن تجتاح أجزاء كبيرة من قـــارة أفريقيا.

وإذا كان البعض يعتبر أن دراسة تاريخ المغول وغزواتهم وفتوحاتهم يعتبر مغامرة، فإن البحث فى تاريخ. مدينة قراقورم حاضرة المغول هو بحد ذاته مغامرة بطبيعتها تكمن فيها المخاطرة، خاصة وأن المعلومات الخاصة بتاريخ هذه المدينـــة والتى تيسرت لنا لا تتعدى شذرات قليلة متناثرة فى بطون بعض مـــصادر المغـــول والمصادر السريانية وكتب الرحالة الأوربيين والصينيين الذين زاروا هذه المدينـــة، وقدموا وصفا عنهم وعلى رأسهم ماركو بولو البندقي، والرحالة الراهبين يوحنا بلانو كاربينى John plano of carpini ووليم روبرك wulliem of Rulruck. وحتى وصف هؤلاء للمدينة عندما زاروها خلال القرن السابع الهجـــريِ (الثالـــث عـــشر الميلادي) تركوا لنا عنها سطور قليلة للغاية لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تظهر الأهمية الحقيقة لتلك المدينة، باعتبارها حاضرة لإمبراطورية ضخمة، ولا تكاد تشفى

غليل الباحث أو تعينه على أعطاء صورة شبه متكاملة أو واضحة عن تاريخ هـذه المدينة وموقعها واسمها القديم وتاريخ بناءها والعمائر التى أقيمت فيهـا ومظـاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية بها، والدور السياسي والعسكري لهذه المدينـة فـى تاريخ الإمبراطورية المغولية،وهنا تكمن الصعوبة الحقيقة للموضوع، وأصعب مـا فيها هو جمع مادته القليلة والنادرة من بطون مـصادر المغـول وكتـب الرحالـة الأوربيين والصينيين والعرب والتى تكاد تعد على أصابع اليد الواحدة.

ومما يزيد من صعوبة الموضوع أن جميع المستشرقين والمؤرخين العـرب -حسب علمي القاصر – وعلى رأسهم عمالقه الدراسات المغولية الحديثة أمثال بـل بليـــــــــــوت [١] P.pelliot ، وهــــــــــــــورث [٢] Howrth، ودوسون [٣] Dohsson، برتولد شبولر [٤]، والمستشرق الروسي الكبير بارتولد [٥]، والمرحوم الدكتور فؤاد الصياد [٦]، والدكتور السيد الباز العريني [٧]، لم يجرؤا على الخوض فى تاريخ قراقورم أو أن يفردوا لها دراسة مستقلة قائمة بذاتها توضح أهمية حاضرة المغول وتاريخها السياسي والحضاري واعتبروا ذلك مغامرة المغـامرين – إذا ما صح هذا التعبير – المحفوفة بالمخاطر، بسبب ندرة أو شحاحة المادة التاريخية الخاصة بتاريخ هذه المدينة. وعندما فكر المستشرق البريطاني ديفيد مورجـان D. Morgan فى التعرض لتاريخ هذه المدينة بين دفتي مؤلفه القيم المعنـون باسـم " المغول " The Mongols فإنه كتب عنها بضعة أسطر قليلة على استحياء وبحـذر ولم يجرؤ على الخوض فى تاريخها. ويذكر المستشرق مورجان الـسبب الرئيـسي وراء عدم إقدام المستشرقين، وهو على رأسهم، لدراسة تاريخ قراقورم علـى نحـو مفصل على أساس أن المكان الذى أقيمت فيه عاصمة المغول لم يكن ملائماً إلى حد كبير لأن تقام فيه عاصمة تقوم على أسس ومعايير أو قواعد بنيت علـى أساسـها العواصم الأخرى للإمبراطوريات الضخمة التى ظهـرت فـى التـاريخ القـديم أو

الإسلامي [٨]. ويضيف مورجان أيضاً أنه من أسباب عدم اهتمام المؤرخين بدراسة تاريخ قراقورم، أن المدينة نفسها لم تكن تثير إعجاب من زاروها من الرحالة الأوربيين أو الصينيين أو حتى المؤرخين المحدثين ولذلك لم تنل العناية أو الاهتمام منهم على أساس أن خانات المغول والمغول أنفسهم فى ذلك الوقت كانوا يقضون معظم حياتهم أو سنى حكمهم خارج قراقورم لانشغالهم بالفتوحات والغزوات الخارجية وتأسيسهم إمبراطوريتهم الضخمة [٩].

وعلى الرغم مما قد يبدو فى هذه الآراء بعضاً من الصحة من قبل المستشرق البريطاني، إلا أنها تجافي الحقائق التى توصلنا إليها من خلال الروايات القليلة التى وردت فى بطون مصادر المغول والرحالة الأوربيين والعرب، ولو كان هذا المستشرق البريطاني قد تأمل أو قرأ بعناية وعمق نصوص المصادر المغولية الخاصة بتاريخ هذه المدينة وقرأ ما بين سطورها، فلربما لم يكن قد بني هذه الآراء غير الصحيحة. فإن الروايات القليلة فى المصادر القليلة التى تيسرت لنا تؤكد على مدى اهتمام جنكيز خان، أول من أتخذ قراقورم عاصمة للمغول وعمل على تعميرها، وكذلك فعل خلفاؤه من بعده من قاآنات المغول وعلى رأسهم أوكتاى، الذى طبقا لمصادر المغول وكتب الرحالة الأوربيين، كان حريصاً على إعادة بناء وتعمير هذه المدينة، وإظهارها بمظهر حضاريٍ راق وسط مدن منغوليا وآسيا الوسطي خاصة فى الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعمارية. بل أن بعض روايات هذه المصادر تؤكد أن أوكتاى ومن جاء بعده من قاآنات المغول مثل منكوقاآن، حرصوا على أن يجعلوا من قراقورم حاضرة جديرة بإمبراطورية المغول الضخمة، وتمسكوا بإقامتهم فيها، وحرصوا على استقبال السفراء بها وعقد مجالس القوريلتاى فيها والتى كانت تعقد لانتخاب أو اختيار القاآن الجديد على العرش المغولي، وأن تكون قراقورم المركز الرئيسي التى تخرج منه الجيوش الرئيسية

الخارجة للغزو والفتح. وتؤكد بعض الروايات أن أوكتاى بصفة خاصة، والذى يعتبر المؤسس الحقيقى لقراقورم، كان حريصاً على إقامة أو تشييد عمائر مدينة عسكرية رائعة بها وأن يربط بينها وبين بقية مدن وأقاليم إمبراطورية المغول الشاسعة عن طريق شبكة واسعة من الطرق ومحطات البريد والتى عن طريقها كان يتم نقل الأخبار من منغوليا وعاصمتها قراقورم إلى بقية إنحاء الإمبراطورية، وتؤكد هذه الروايات عل أن أوكتاى أراد أن يجعل من قراقورم بغداد آسيا الوسطي أو بغداد أخري فى منغوليا الوطن الأصلي للمغول، وهو الأمر الذى أكده بوضوح مؤرخ المغول رشيد الدين فى روايته الرائعة والقيمة بكتابه جامع التواريخ.

وأمام هذه الأحوال جرأنا على النهوض بهذا العبء الكبير انطلاقاً من أهمية دراسة تاريخ قراقورم سياسياً وحضارياً، والذى يفتقر إلى دراسة شاملة تتناول بحث وتحليل معطيات المصادر وروايات الرحالة الأوربيين والصينيين على نحو متعمق ودقيق. ويلاحظ أنه بالرغم من أن المصادر القليلة للغاية التى لدينا لم تسعفنا فى رواياتها بذكر كافة الأحداث الخاصة بحاضره المغول سياسياً وحضارياً، فإننا حاولنا بقدر استطاعتنا جمع شتات كافة المتفرق من هذه الروايات بمعالجة جديدة، وقالب جديد لأول مرة فى تاريخ الدراسات المغولية الحديثة عامة، وتاريخ مدن وقلاع آسيا الوسطي وإقليم منغوليا خاصة متأسين بذلك بقول المؤرخ التركي حاجي خليفة فى كتابه " كشف الظنون " أن التأليف للباحث أو الدارس اما شيء لم يسبق إليه فيخترعه أو شيء ناقص يتممه أو شيء مغلق بشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه أو شيء متفرق يجمعه أو شيء مختلط يرتبه أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه.

ونحن لا نزعم أننا تغلبنا على المشاكل والصعوبات التى واجهتنا أثناء جمع المادة التاريخية للموضوع وغطينا جوانبه المختلفة على نحو كامل، وبمعني آخر لا

ندعي أننا قد أحطنا بالموضوع من جميع جوانبه، أو وفيناه حقه بالكامل فى غياب الوثائق أو الأدلة الأثرية الكافية الخاصة به سواء فى مصادر المغول أو المصادر السريانية أو كتب الرحالة الأوربيين والعرب الصينيين، إلا أننا حاولنا أن نضع لبنه فى هذا البناء المعرفي الصغير، مما يشجع الباحثين فيما بعد على ضرورة استكماله والاستفاضة فى بعض جوانبه وزواياه، وعناصره الأخرى التى قد يراها البعض أنها لم نعط حقها عن البحث أو الدراسة، خاصة وأن هذه الدراسة ليست إلا اجتهاداً شخصياً ومحاولة متواضعة من جانبنا لإظهار أهمية قراقورم من الجانبين السياسي والحضاري، وما قامت به من دور وسط مدن آسيا الوسطي عامة ومنغوليا (أو مغولستان) خاصة، إذ لا أعرف حسب علمي القاصر - أن أحداً قد تناول هذا الموضوع من المؤرخين المحدثين العرب أو الأوربيين فى دراسة مستقلة جادة تحليلية ونقدية. ولعل هذه الدراسة تكون بادرة لدراسات أوسع فى هذا المجال يقوم بها باحثون فى عالمنا العربي، وكذلك المستشرقون فى أوربا، خاصة وأن المجال لا يزال خصباً أمام دراسات أخري فى هذا الموضوع، ولهذا فإن هذه الدراسة عمل المجتهد، فإن أصبت فهذا توفيق من الله، وإن أخطأت فيكفيني أجر المجتهد الذى أخطأ.

١- قراقورم: موقعها ووصفها ومسمياتها ومعنى لفظة قراقورم طبقاً لمصادر المغول والرحالة الأوربيين وآراء المؤرخين حول ذلك:

على الرغم من أن الرحالة الأوربيين وعلى رأسهم ماركو بولو والراهب القس يوحنا بلانو كاربيني والراهب وليم روبرك قد زاروا العديد من أقاليم المغول مثل - منغوليا أو مغولستان وبلاد الختا (الصين الشمالية)، وكتبوا تقارير تحتوى على معلومات فريدة وتفاصيل كثيرة عن العديد من المدن التى زاروها وعن حياة

المغول المعيشية وثقافتهم ومجتمعهم ونظم المغول ورسومهم فـي كافـة الجوانب السياسي والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أنهم لم يهتمـوا علـى الإطلاق بوصف موقع وجغرافية مدينة قراقورم، وحتى الوصف الذى انفرد به كل من وليم روبرك وماركو بولو لا يقدم أية تفاصيل عن موقع وجغرافية المدينة وحتى أهميتها من الناحية السياسية والحضارية، مما يجعل الباحث فى موقف لا يحسد عليـه فـي محاولته أعطاء صورة شبه كاملة عن الموقع الجغرافي لقراقورم الذى أعطاها أهمية سياسية واستراتيجية وحضارية لدى خانات المغول وحدا بهم لاختيارهـا حاضـرة لإمبراطوريتهم الضخمة. ومن خلال المعلومات القليلة لهؤلاء الرحالة الأوربيين التى تكاد لا تسمن ولا تغني من جوع يتضح أن قراقورم تقع عل الـضفة الـشرقية لنهر أورخون أحد الأنهار الكبري فى منغوليا وسط منطقة سهلية وبالتحديد فى غرب منغوليا [١٠]، وهى المنطقة التى كان يسيطر عليها قبائل النايمان الذين أسسوا دولـة من أكبر دول وسط آسيا قبل ظهور جنكيز خان وقبل أن يخضعها لسيطرته فيما بعد [١١]. والنهر الذى تقع المدينة على الضفة اليمني منه، كما تذكر الرواية المغوليـة، ينبع من جبل يسمونه قراقورم، وأن المدينة قد سميت باسم هذا الجبـل، وأن جبـل قراقورم هذا ينبع منه حوالى ثلاثين نهراً [١٢]. وتؤكد الرواية المغولية هنا على تعدد الأنهار التى تجري فى إقليم قراقورم مما يشير إلى مدى خصب الأراضي التى تحيط بالمدينة وملاءمتها لزراعة الكثير من المحاصيل ، وبالتالي تـشير إلـى الأهميـة الاقتصادية لإقليم قراقورم التى تقع المدينة فى وسطه، على النحو الذى سنوضـحه ونؤكده فى موضعه المناسب من هذه الدراسة.

ويذكر الرحالة الإيطالي ماركوبولو عند زيارته لقراقورم أن محيط المدينة لا يتجاوز الثلاثة أميال، وهو أول مكان أسـس فيـه التتـار حكمهـم فـى الأزمنـة السحيقة[١٣]. وهو يشير بذلك إلى حجم مساحة عاصمة المغول. ويؤكد على روايـة

ماركو بولو الراهب القس وليم روبرك الذى زار قراقورم فى عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، قبل ماركو بولو، حيث يشير إلى ضيق مساحة أو حجم حاضرة المغول عندما يقصد المقارنة بينهما وبين قرية سانت دينيس التى تقع خارج باريس، والتى يعتبرها أكبر من حاضره المغول لو أن الحي الذى أقيم فيه قصر الخان المغولي لم يوضع فى الحسبان [١٤]، مما دعي المستشرق البريطاني مورجان إلى القول أنه بسبب صغر مساحة مدينة قراقورم – طبقاً لما ذكره الرحالة الأوربيين – فإن المكان الذى أقيمت فيه عاصمة المغول فى منغوليا لم يكن ملائماً إلى حد كبير لتقام فيه عاصمة لإمبراطورية ضخمة لا تتوفر لها القواعد أو المعايير المعروفة لإقامة عواصم الإمبراطوريات الضخمة التى عرفت فى التاريخ [١٥].

وعلى الرغم من أن مصادر الرحالة الأوربيين الذين زاروا قراقورم مثل ماركو بولو وكاربيني لم يذكروا أية روايات أو معلومات تخص التاريخ القديم لحاضرة المغول وأسمها القديم قبل أن تعرف بقراقورم بل كعادتهم فى وصفهم لقراقورم كانوا دائماً يحقرون من شأنها ويقللون من أهميتها كعاصمة للمغول، إلا أن رواية صاحب الجهانكشاى، احتوت على معلومات هامة وقيمة فيما يخص التاريخ القديم للمدينة وأول اسم أطلق عليها والظروف التى أحاطت بظهورها ووجودها قبل ظهور جنكيز خان. ورغم أن رواية صاحب الجهانكشاى تتسم بالأسطورية المبالغ فيها، كما هى العادة عن المؤرخين المسلمين عندما يحيكون الأساطير عند تعرضهم لبناء أى حاضرة إسلامية أو غيرها، إلا أنها توضح أن قراقورم أقيمت على أنقاض مدينة قديمة كانت تسمي " أردو باليغ " [١٦] (أى معسكر باليغ) كما ذكر الجويني فى موضع آخر من كتابه [١٧]، وأن الذى بناها قائد اسطورى يسمي بوقوتكين " كان يحكم أقاليم منغوليا والختا (الخطا) والتبت، وأنه استطاع أن يحكم معظم شرق آسيا ووسطها، ثم قام ببناء أردو باليغ بجوار نهر أرقون (أورخون) وقام بتعميرها

بالسكان عن طريق تهجيرهم من أقاليم أخري من بلاد الخطا والتبت وبنى بها قصوراً وبيوتاً لهؤلاء السكان ولنفسه. ويذكر الجويني أنه رأى بنفسه بقايا مدينة قديمة وقصراً منذ العصور القديمة عند حافة نهر أورخون. وتضيف رواية الجويني الهامة أن هذه المدينة القديمة أصبحت جزءاً من المدينة الجديدة التى بنيت باسم قراقورم وألحقت بها وعرفت فى عصر المؤلف الجويني) باسم " مأوو باليغ "[١٩]. ويؤيد المستشرق البريطاني الكبير آندرو بويل Boyle,A فى ترجمته الإنجليزية لكتاب الجهانكشاي تحت اسم " تاريخ فاتح العالم " The history of the world conqueror رواية الجويني حول المسمي القديم لحاضرة المغول وإن ذكر أنه يرجح أن أردو باليغ هى نفسها قرابلغاسون وهى من أسماء المدينة القديمة [٢٠].

ولم تشر الروايات القليلة جداً لدينا إذا كان اسم المدينة القديم " أردو باليغ " قد ظل موجوداً فى عهد جنكيز خان ومتى أطلق عليها اسم قراقورم وما معني هذه اللفظة فى اللغة المغولية وأصل هذه اللفظة واشتقاقها. والواقع أن المصادر التى لدينا تكاد لا تسعفنا بمعلومات كافية أو واضحة حول هذه التساؤلات خاصة وأن الروايتين المغولية والسريانية اللتين تناولتا بعض أخبار هذه المدينة غير واضحتين حول هذه القضية. فيفهم من الرواية السريانية أن اسم المدينة القديم " أردو باليغ " أو " أردو باليق " على حد قولها، ظل موجوداً حتى قاآنية أوكتاى عندما بدأ يعيد بناء وتعمير هذه المدينة لتكون عاصمة تليق بإمبراطورية المغول الضخمة لدرجة أنه سماها بنفس هذا الاسم، كما عرفت أيضاً باسم قراقورم. وأكدت على ذلك الرواية المغولية للجويني عندما يذكر أن أوكتاى قاآن ظل محتفظاً باسم المدينة القديم " أردو باليغ " كما أطلق عليها أيضاً اسم قراقورم نظراً لقربها من جبال لقراقورم [٢٢] (أحد جبال الهيمالايا). على أن الرواية المغولية الأخرى فى جامع التواريخ لم تشر إلى استمرار وجود اسم المدينة القديم سواء فى عهد جنكيز خان أو فى عهد أوكتاى قاآن، وإنما

تؤكد على أن المدينة أطلق عليها اسم " قراقورم " فى عهد أوكتاى قاآن وأنـــه هــو الذى أطلق عليها هذا الاسم، كما أن الإقليم الذى بنيت عليه المدينة أو أعيــد بنــاء المدينة فيه فى عهد أوكتاى قاآن كان يسمي إقليم قراقورم قبل أن يشرع أوكتاى قاآن فى إعادة بناء وتشييد المدينة (٢٤).

أما بالنسبة لأصل لفظة قراقورم ومعناها فيتضح من اسم المدينة أنها لفظــه تركية مغولية تتكون من شقين: قرا أو قرة وهى كلمة تركية معناها الأسود أو القوة (أو القوى) وهى كلمة تضاف إلى أسماء الأعلام والأماكن، وعلى نفس النمط هناك مدينة قرة حصار فى آسيا الصغرى واستعملت هذه الكلمة كثيراً فى اللغــة التركيــة لتدل على أسماء لبعض الأماكن أو المواضع مثل قرة ميدان وغيرها. أمــا الــشق الثاني من اللفظة فهي قورم ويبدو أنها لفظة مغولية. ولم توضح المصادر المغوليــة والمعاجم التركية التى رجعنا إليها معنى كلمة قورم وفيما يتعلق برسم قراقورم ففى المصادر المغولية والسريانية تكتب قراقورم (٢٥). ويميل الكثير مــن المستــشرقين والمؤرخين العرب لهذا الرسم من الكلمة (٢٦). ويميل بعض المؤرخين المحدثين لأن يكتبها " قرة قورم " (٢٧). ويسميها ابن بطوطة فى أثناء رحلته إلى بــلاد الخطــا " قراقرم (٢٨). أما الرحالة الإيطالي ماركو بولو فقد ذكرها فى رحلتــه تحــت اســم قراقوران (٢٩) (كراكورن طبقاً للترجمة). ونميل إلى رسم الكلمة التــى وردت فــى المصادر المغولية ويذكر المستشرق الإنجليزي وليم مارسون فى ترجمة وشروحاته وتعليقاته على رحلات ماركوبولو أن قراقورم تسمي عند الصينيين باسم هولين وهى تقابل كورين أو قورين فى النطق التترى (٣٠).

وفيما يتعلق بمعني لفظه قراقورم فيذكر المستشرق البريطاني الكبير ولــيم مارسدن فى ترجمته وشروحاته لرحلات ماركو بولو أن قراقورم قد وردت كثيــراً بمعني " الرمل الأسود " (٣١). ورغم أن وليم مارسدن لم يذكر الشواهد أو الأدلة التى

بني عليها رأيه هذا حول معني قراقورم فيرجح أنه بني رأيه على أساس المعنى اللغوى للمقطع الأول منها باللغة التركية (قرا أو قرة) بمعني الأسود، ويبدو فى هذا الرأي الكثير من الصحة على أساس أن طبيعة المنطقة التى بنيت فيها حاضرة المغول تكثر بها الأنهار وخاصة نهر الأورخون الذى تقع المدينة على الضفة اليمنى منه وسط سهل فيضي خصب وتوافر الرمال السوداء أو التربة السوداء الخاصة بهذه الأنهار فى هذا الإقليم مما يجعلنا نرجح أيضاً أن يكون معناها مدينة السواد وقد يكون معناها مدينة القوة * على أساس المعني الثاني لكلمة قرا أو قره وهو القوة. ومن المهم جداً أن نذكر أن المستشرق الروسي الكبير بارتولد يذكر أن هناك موضع آخر يعرف باسم قراقورم أو قراقوم لا علاقة له البته بعاصمة جنكيز خان فى منغوليا، وأن هذا الموضع كان مكان استجمام الجيوش المغولية أثناء غزوهم لأقاليم ما وراء النهر [٣٢]. ولم يحدد بارتولد موضع هذا المكان وإن ذكر أن قراقورم هذا كان موضع نزول القنغلي (القبجاق) الذى يحمل الاسم نفسه والذى يذكره الجويني [٣٣].

٢- قراقورم فى عهد جنكيز خان:

لم توضح المصادر المتاحة لدينا منذ متى أتخذ جنكيز خان من قراقورم عاصمة له ولإمبراطوريته المزمع إقامتها كما لم توضح العوامل أو الأسباب التى دفعته لاتخاذ قراقورم حاضرة له، كما أن هذه المصادر لم تشر على الإطلاق إلى العمائر أو الأبنية التى أقامها جنكيز خان فى قراقورم سواء كانت عمائر مدينة أو عسكرية أو حتى يغلب عليها الطابع الاقتصادي أو الاجتماعي. ويرجح أن جنكيز خان قد قرر اتخاذ قراقورم حاضرة لملكه بعد أن تمكن من جمع شمل القبائل المغولية المتفرقة ونصب نفسه خاقاناً عليها وذلك فى عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م عندما

عقد مجلساً عاماً أو اجتماعاً عمومياً (قوريلتاى أوقور ألتاى باللغة المغولية) والـــذى تم فيه تنصيبه كخان أعظم على جميع ساكني الخيام فى منغوليا، وما جاورها مـــن البلدان، واتخذ له لقباً جديداً مختاراً هو جنكيز خان. وفى هذا الاجتماع أيضاً نـــشر قوانينه المشهورة التى عرفت فى التاريخ باسم الياسا أو الياساق (ياسا هى جنكيـــز خان) [٣٤]. ويذكر كل من بل بليوت ومورجان أن جنكيز خان، بعد توحيده القبائـــل المغولية، حاول أن يستغل هذا المكان المعروف بالاسم القديم أردو باليق ليكون قاعدة عسكرية رئيسية لجيشه وحاضرة له [٣٥]. وبذلك يؤكد المستشرقين البريطـــانيين أن هدف جنكيز خان من اتخاذ قراقورم كحاضرة له كان عسكرياً بحتاً.

ويعلق المستشرق البريطاني مورجان على قيام جنكيز خـــان باتخـــاذ هـــذا الموقع (قراقورم) على الضفة اليمني لنهر أورخون لإقامـــة عاصـــمة مملكتـــه أو إمبراطوريته المزمع تكوينها، بأنه كان اختياراً غير موفق من جنكيز خان لأن هـــذا المكان لم يكن ملائماً على الإطلاق لأن يكون مركز لعاصـــمة أو حاضـــرة تليـــق بإمبراطوريته ضخمة كإمبراطورية المغول لأنه لم يختار هذا المكان طبقاً للقواعد أو المعايير المعروفة فى إقامة أو تأسيس عواصم الإمبراطوريات الضخمة على شاكلة إمبراطورية المغول [٣٦]. ويضيف مورجان أن قراقورم فى عهد جنكيز خان لم تكن مدينة تثير الإعجاب أو الاهتمام، بل أنها كانت مجرد معسكر كبير لجيشه الذى خرج به بعد ذلك لغزو العالم المعروف وقتذاك، ولهذا لم يهتم بإقامة أية عمـــائر بهـــا أو مظاهر للنشاط الاقتصادي للمدينة أو يهتم حتى بتعميرها أو إسكانها بعناصر سكانية من خارج إقليم منغوليا. ويرجع السبب فى ذلك أن المغول فى ذلـــك الوقـــت كـــان لازالوا بدو غلاظ قساة لم يعرفوا التحضر وحياة الاستقرار بعد، ولهذا لـــم يكونـــوا مقيمين بشكل دائم أو معظم الوقت فى قراقورم وعلى رأسهم جنكيز خان نفسه، ولهذا

لم يهتموا كثيراً بالعناية بمثل هذه المدينة وبعمائرها وبمظاهر الحياة الاقتصادية فيها بحيث يجعلونها جديرة بمثل هذه الإمبراطورية (٢٧).

على أن هذا الرأى من قبل كل من بليوت ومورجان حول السبب الحقيقي والوحيد لاختيار جنكيز خان قراقورم لتكون مجرد قاعدة عسكرية لجيشه، يجافى الحقيقة ولا يعتمد على أدلة أو أسانيد منطقية قوية، على أساس أن هناك عوامل أخري تضاف إلى هذا العامل العسكري فى اختيار جنكيز خان لقراقورم كحاضرة لملكه، ومنها عوامل اقتصادية وسياسية سنوضحها فى مكانها المناسب من هذه الدراسة. كما أن رأي مورجان الذى ينحي فيه باللائمة على جنكيز خان لاختيار هذا الموقع ليكون مقراً لعاصمة ملكه وعدم اهتمامه به، وأن هذه المدينة لم تثير الإعجاب ولم يكن بها أى مظاهر للرقي والحضارة التى تجعلها جديرة بأن تكون حاضرة لهذه الإمبراطورية الضخمة، يجافي الحقيقة أيضاً ويتسم بقسوة حكم المستشرق البريطاني على جنكيز خان أولاً، وعلى قراقورم ثانياً كحاضرة للمغول والتقليل من شأنها وأهميتها سواء فى عهد جنكيز خان أو قاآنات المغول من بعده، فقد تناسي أو نسى هذا المؤرخ عن عمد أنه كان من الطبيعي أو المنطقي بعد أن بدأ جنكيز خان فتوحاته وغزواته وتكوين إمبراطوريته الضخمة، وانتقل المغول من ضنك العيش العين والضيق إلى النعمة، وانتقلوا من السجون إلى البساتين، ومن الصحارى إلى القصور ومن العذاب المقيم إلى جنات النعيم، وغدا ألبستهم حريراً، وأطعمتهم فاكهة ولحم طير مما يشتهون وأشربه مختومة، وصدقت حياتهم فتحولوا إلى الجنان، وغدوا يستوردون حاجياتهم من أقصي الغرب وأقصي الشرق، وينثرونها فى منازلهم، ويكنزون الذهب فى خزائنهم ويرتدون المرصع والمذهب، ويسترخصون الجواهر والحرائر، أسواقهم كرمان، وماؤهم من عمان، وأصبح لكل امرئ منهم مزارع خاصة به، يشتهر بها مزارعوه، فكثرت الغلات وعمت المشروبات التى هى

أصفى من ماء نهر جيحون على حد تعبير الجويني في بيان جزل [٣٨]. وبفضل جنكيز خان ارتقت دولتهم، ونسوا ضيقهم واتسعت سعادتهم، ونتيجة لهذه الأحوال والظروف كان من الطبيعي أن يتخذ حاضرة تليق بهذه الإمبراطورية الضخمة ومظاهر الأبهة والفخامة التي هبطت على المغول نتيجة غزواتهم وفتوحاتهم لشعوب وأقاليم أكثر ثراء ورقيا وحضارة منهم. وكان جنكيز خان نفسه، بعد أن اتخذ من قراقورم عاصمة لإمبراطوريته حريصاً على إظهار هذه المدينة بمظهر يليق بمكانتها كحاضرة لإمبراطورية ضخمة، فكان من المنطقي أن يهتم بعمائرها ومرافقها ومظاهر الحياة الاقتصادية فيها من تجارة وصناعة وأن تكون هناك حاضرة يستقبلها فيها جنكيز خان وقاآنات المغول من بعده سفراء الدول الخاضعة له، أو التي ستخضع له وتخطب وده وتعلن الولاء والخضوع له، بجانب وجود مركز رئيسي إداري لإدارة كافة أقاليم الإمبراطورية حيث يتلقي فيها أيضاً الضرائب التي كانت مفروضة على المدن التي فتحها المغول.

ويؤكد على هذه الحقائق أن جنكيز خان كان حريصاً على جعل قراقورم حاضرة المغول مدينة تضاهي في الرقي والحضارة المدن الأخرى المتحضرة الراقية التي غزاها المغول في كل من بلاد الختا (الصين الشمالية) مثل مدينة كانبالو (بكين) ومدن ما وراء النهر مثل بخاري وسمرقند، ويؤكد على هذا أيضاً أن المغول منذ عهد جنكيز في غزوهم وفتوحاتهم لمدن بلاد ما وراء النهر ومدن السلطنة الخوارزمية وغيرها كانوا يتبعون سياسة ضمن استراتيجيتهم العسكرية والحرب النفسية تقوم على أساس ارتكاب المذابح المروعة لسكان هذه المدن، وكان العنصر الوحيد الذي يبقي عليه المغول دون مساس هم الصناع والحرفيون والبناءون في تلك المدن، حيث كان يتم إرسالهم أولا بأول إلى منغوليا ليقوموا بتعمير الحاضرة المغولية (قراقورم) وإقامة العمائر ومختلف الحرف والصناعات بها ففي عام

٦١٧هـ / ١٢٢٠م، بعد أن تمكن المغول من فتح سمرقند ارتكبوا بها مذبحة مروعة وجعلوا سماءها أرضاً وطولها عرضاً تنعى من بناها، وتحول معظم أهل سمرقند بين حريق وغريق تحت الأنقاض (٣٩)، ولم يبق جنكيز خان على أحد من سكانها سوى القليل بعد إن كانت عامرة بسكانها (٤٠)، ثم أرسل ثلاثين ألفاً ممن يمثلون أرباب الحرف والصنائع من السمرقنديين إلى قراقورم ليعملوا هناك (٤١). ورغم المبالغة البائنة في هذا العدد من قبل الجويني فيما يتعلق بأعداد الصناع والحرفيين من أهل سمرقند الذين أرسلوا إلى قراقورم لتعميرها، إلا أنه يوضح ويؤكد أن المغول اتبعوا هذه السياسة التقليدية في كل بلد غزوة. وكان لذلك أكبر الأثر فيما أفاده المغول من حضارة المسلمين وصناعتهم وفنونهم في منغوليا بصفة عامة وقراقورم بصفة خاصة (٤٢).

ورغم أن المصادر والمراجع المتاحة لدينا لم توضح أو لم تشر على الإطلاق إلى إسهامات هؤلاء الصناع والحرفيين والبنائين في تعمير قراقورم أو للعمائر والأبنية التي أقاموها هناك، إلا إنه يرجح أن هؤلاء الصناع والحرفيين والبناءين قد حملوا مظاهر الحضارة الإسلامية الراقية والمتقدمة من فنون وعمارة وصناعات، على أكتافهم، لكي يضعوها في مدينة قراقورم ويجعلوها حاضرة تضاهي أو تماثل مدنهم التي سقطت ودمرت بأيدي المغول منذ عهد جنكيز خان ومن جاء بعده من قاآنات المغول.

وعلى الرغم من أن جنكيز خان قد اختار قراقورم كحاضرة سياسية لإمبراطوريته حيث موطن إباؤه وأجداده الأصليين، فإن فترة إقامته فيها كأول خان أعظم للمغول كانت تعد على أصابع اليد الواحدة، لأنه بعد اختياره لها كعاصمة عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م لم يمكث بها إلا أربعة سنوات أو أقل، فخرج على رأس جيوشه الجرارة لغزو بلاد الخطا (الصين الشمالية) منذ عام ٦٠٥-٦٠٦هـ / ١٢٠٩م،

وبعد انتهاءه من غزو الصين عاد إلى العاصمة قراقورم ليمكث بها مـدة قـصيرة أخري خرج بعدها لغزو السلطنة الخوارزمية وأقاليم ما وراء النهر منذ عام ٦١٦هـ / ١٢١٩م، وظل جنكيز خان فى حملات وغزوات ومعارك متواصلة بحيث لم يعـد إلى العاصمة قراقورم إلا فى عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م عندما وافاه الأجل المحتـوم، وكان يبلغ من العمر أثنين وسبعين سنة، وحملت جثته إلى منغوليا، حيث تقع مراكز معسكراته الدائمة فى مدينة قراقورم ودفن فى داخل جبل بورقا – قلدون وهو أحـد الجبال التى تحيط بالعاصمة المغولية وهو نفس المكان الذى كان قد حدده هو بنفسه لأن يكون قبره عندما كان حياً [٤٣].

٣- إعادة بناء وتعمير قراقورم فى قاآنية أو كتاى: العمائر المدنية والعسكرية فى قراقورم (٦٢٦-٦٣٣هـ / ١٢٢٨،١٢٢٩- ١٢٣٦م:

وفى ذلك القوريلتاى (قور التاى باللغة المغولية) الكبير الـذى عقـد علـى ضفاف نهر كرولن فى عام البقرة (هوكاربيل) الموافق عـام ٦٢٦هـــ / ١٢٢٨-١٢٢٩م ، تم تتويج الابن الثالث لجنكيز خان المسمي أوكتاى خاناً جديداً على العرش المغولي ووريثاً للفاتح العظيم [٤٤].

والواقع أن ارتقاء أوكتاى عرش الخانية كان يمثل بداية مرحلة جديدة مميزة فى تاريخ الإمبراطورية المغولية بصفة عامة، وفى تاريخ قراقورم حاضرة المغول بصفة خاصة وذلك فى تاريخ المدينة السياسي والحضاري. فقد كان أوكتـاى يتـسم بشخصية تختلف تماماً عن شخصية جنكيز خان نفسه، فإذا كان أبوه قد قضي معظم حياته وفترات حكمه خارج العاصمة قراقورم فى غزوات وفتوحات متواصلة، فـإن أوكتاى قد شارك فى الحملات العسكرية بصورة أقل مما فعل أبوه، كما أنه قـضي معظم سنوات حكمه السبع بالعاصمة قراقورم ونواحيها وهو الأمـر الـذى أكدتـه

مصادر المغول (٤٥)، كما أن أوكتاى كان يختلف تماماً عن أخويه تولوي ذي المواهب العسكرية وعلى جغتاي الذي عرف بصرامته في تطبيق الياسا، في حين أشتهر أوكتاي بدماثة الخلق، ولم يكن متشددافي تنفيذ الياسا كما أنه كان يتمتع بصفات حميدة استطاع أن يجمع بها أمراء البيت المالك وبقية سكان الدولة من حوله، ويجعل من نفسه هدفا لمحبتهم، وتفانيهم في الأخلاص له، ويروي صاحب طبقات ناصري أن أوكتاي كان ملكا كريما نبيل الخلق كما كان طيب المعاملة للمسلمين وغيرهم من سكان العاصمة وخارجها، على حين أن أخاه جغتاي كان فظا غليظ القلب وكان لا يكف عن إيذاء المسلمين من سكان العاصمة وخارجها وإلحاق الضرر بهم (٤٦). وعن صفاته وأخلاقه أيضا أجمع المؤرخون الإسلاميون على وصفه بالكرم والجود والمروءة وأطلقوا عليه " حاتم آخر الزمان " (٤٧). وأوردوا أمثلة كثيرة تبرهن على جوده وكرمه وعدله وميله إلى الشفقة والرحمة وبغضه لإراقة الدماء(٤٨). ويذكر أحد أقطاب الدراسات المغولية الحديثة أن أوكتاي بالقياس إلى غيره من المغول كان لين العريكة، يحمل بين جنبيه نفسا طيبه خيرة وضميرا يقظا، أشاع في رعاياه العدل والإحسان والمروءة، وقام بعدة إصلاحات في البلاد المغلوبة على أمرها خففت من الويلات التي لاقتها على أيدى ابيه (٤٩). ويضاف إلى ذلك أن أوكتاي كان محبا لحياة اللهو والترف والرفاهية، كما كان مغرما بتشييد القصور والمباني التي توضح مدى ثراء وغنى الامبراطورية المغولية داخل مدينة قراقورم وأكدت على ذلك مصادر المغول وعلى رأسها كتاب جامع التواريخ الذي يعبر في بيان جزل عن ذلك عندما يذكر أن أوكتاي قد قضى معظم سنى حكمه السبع " في الأنس والمتعة " وكان ينتقل من المصايف إلى المشاتي، ومن المشاتي إلى المصايف، سعيداً مسرورا، كما كان دائما مع النسوة الحسان، والمعشوقات الجميلات، منهمكا في استيفاء أصناف الملذات وكان يصرف كل وقته المبارك في

إقامة العدل والإحسان، وإزاحة الظلم والعدوان، وتعمير البلاد والولايات وإنشاء أصناف العمارات (٥٠).

والواقع أن هوس القاآن أوكتاي بتشييد مختلف الأبنية والأدر في مدينة قراقورم جعلنا نشعر أننا أمام حاكم مغولي يختلف تماما عن جميع حكام أو أباطرة المغول بإستثناء منكو قاآن الذين عرفوا بالقوة والشدة وسفك الدماء، وتدمير مظاهر الحضارة والعمران في المدن أو الأقاليم التي غزوها وتوضح الرواية المغولية بأن أوكتاي قد سبق عصره فيما يخص حبه الشديد وميله إلى التعمير والتشييد ولم يكن ينافسه من حكام المغول في ذلك الوقت سوى قوبيلاي في الصين فيما بعد، وأكدت الرواية المغولية على ذلك بقولها " ولم يكن يهمل بحال من الأحوال ناحية تتصل بتمهيد قواعد الملك وتشييد مباني العمران" (٥١) وذلك داخل أقليم منغوليا عامة وفي قراقورم خاصة.

وكما ذكرنا آنفا أن أوكتاي ذلك الخان المغولي الذي سبق عصره بين حكام المغول في الجانب الحضاري، أمضى معظم سني حكمه بالعاصمة قراقورم وضواحيها ولذلك حرص على أظهارمظاهر الأبهة والفخامة وعلى تشييد أبنيته الضخمة هناك ولذلك جلب إليها أمهر الصناع والبنائين والمهندسين من أهل الخطا ومن المسلمين على النحو الذي أكدته مصادر المغول (٥٢).

وعندما ارتقى أوكتاي عرشه الخانية بدأ يفكر في بناء حاضرة أو عاصمة جديدة تليق بالأمبراطورية المغولية الضخمه، وفضل أن تكون تلك العاصمة في نفس مكان العاصمة القديمة أيام والده جنكيزخان والتي يبدو أنه لم يكتمل بناءها أثناء حياة جنكيزخان وأكدت على ذلك الرواية المغولية والتي حددت أيضا مساحة العاصمة قراقورم بقولها " وحن (أي أوكتاي) إلى معسكر أبيه الكبير الذي هو موضع إقامته حول إيميل... وهي الممتدة من حدود مياة أرقون (أرخون) وجبال قراقورم (٥٣)،

وأكدت الرواية السريانية على الرواية المغولية فذكرت " وقفل (أي أوكتـاي) إلـى مواضعه القديمة وبنى بها مدينة سماها أردو باليق وهي مدينة قراقورم " (٥٤). ويبدو أن اسم المدينة القديم " أردو باليغ(٥٤م) أو " أردو باليق " على حـد تعبيـر الروايـة السريانية كان لا يزال يطلق على المدينة القديمة قبل جنكيزخان وفي أيام جنكيزخان، وظل يطلق أيضا على المدينة التي فكر أوكتاي في إعادة بناءها وتعميرها، ويؤكـد على ذلك الروايتين المغولية والسريانية فتقول الرواية المغولية " ولـم يكـن هنـاك موضع لمدينة ولا لقرية إلا معسكر باليغ وجدار أثار سور حجري مسجل عليه أن بانية هو بوقا خان ومسجل عندهم (أي عند المغول) مآوو باليغ، فأمر الملك أن يبنى على هذا السور مدينة وسموها معسكر باليغ (٥٥) ".

وأكدت على ذلك الرواية السريانية عند ما تذكر " وبنى (أي أوكتـاي) بهـا مدينة سماها أردو باليق (٥٦) ويبدو أنها عرفت بعد ذلك بإسم قراقورم (٥٧) أي مدينة السواد نسبة إلى لون الأرض أو التربة التي بنيت عليها حيث تكثر الأنهار بجوارها مثل نهر الأورخون الذي اقيمت المدينة على ضفته اليمنى ونهر كرولين، ويبدو أن اسم قراقورم كان يطلق على المنطقة المحيطة بالمدينة القديمة وكانت تتميز بتربتهـا السوداء الخصبة كما أكدت بذلك روايات المغول مما جعل المغول يسمون المدينـة، حاضرة أوكتاي، بإسم الأقليم الذي بنيت في وسطه (٥٨).

وتؤكد الباحثة البريطانية هيلدا هوخان على الروايتين المغولية والـسريانية عندما تذكر أن أوكتاي بعد اختياره خانا أعظم للمغول خلفا لأبيه جنكيزخان، أقام في أرض أبيه الأصلية على نهر الأورخون وأقام في قراقـورم أول عاصـمة سـكنية للمغول حيث شيد القصور لأسرته وبلاطه وجلب الصناع الأسري من حملاته لبناء العاصمة وتزيينها (٥٩).

وتوضح المصادر المغولية المتاحة لدينا أن أوكتاي قاآن قد عمل على توسيع رقعة أو مساحة العاصمة قراقورم بحيث تبدو أكبر مما كانت عليه قبل جنكيزخان وفي أيام جنكيزخان، كما كان حريصا على أن يجعل من قراقورم مدينة تنافس بغداد وتضاهيها في العظمة والأبهة والضخامة في مبانيها ومتنزهاتها وشوارعها بحيث تكون قراقورم هي بغداد منغوليا وأسيا الوسطى، وأكدت على ذلك الرواية المغولية القيمة والفريدة لرشيد الدين حيث يذكر " وسأل أوكتاي عن أبهى المدن وأطيبها على ظهر البسيطة، فقالوا بغداد، فأمر بتشييد مدينة عظيمة على ضفاف نهر أورقون (٦٠) (أورخون) ، وتذكر الرواية المغولية لكل من رشيد الدين والجويني أنه من أجل جعل قراقورم عاصمة تضاهي بغداد في عظمتها وروعتها حرص القآن اوكتاي على استخدام أمهر البنائين والمهندسين والصناع من الأقاليم المفتوحة أو الخاضعة سواء من بلاد الخطا أو البلدان الإسلامية الأخرى، وأن يوفر لها كل مقومات الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ويؤكد على ذلك رواية الجويني حيث تقول " واستقدموا من الختا أصحاب الحرف وكذلك من بلاد الإسلام وجلبوا الصناع والزراع " (٦١).

وتؤكد رواية رشيد الدين على حرص أوكتاي بأن يجلب إلى قراقورم أمهر وأبرع الصناع والبنائين والمهندسين قائلا " ولما كان قد أحضر معه من قبل من بلاد الخطا مختلف طبقات الأساتذة لكل صناعة وحرفة " (٦٢) وكان الهدف من استقدام هؤلاء الأساتذة في العمارة والبناء والهندسة على أساس أن يضعو داخل مباني وقصور المدينة ومنشأتها العسكرية الأخرى كل الطرز والفنون المعمارية المتقدمة التي اشتهرت بها أقاليم الخطا (بلاد الصين الشمالية) والبلدان الإسلامية الأخرى. ويلاحظ أن المصادر المتاحة لدينا لم تحدد التاريخ الذي بدأ فيه أوكتاي في بناء مدينة قراقورم بمنشأتها وعمائرها، ولكن يرجع الصينيون تاريخ إنشاء قراقورم في

١٢٣٦م / ٦٣٣هـ حث بدأ في بناءها ببناء سور أحاط المدينة من كل جهاتها (٦٣).
ويتفق المستشرق البريطاني مورجان مع هذا الرأي عندما يذكر أن قراقورم بدأ في
تسويرها أولا على أيدي أوكتاي عام ١٢٣٦م / ٦٣٣هـ. ويبدو أن هذا السور الذي
بناه أوكتاي كان من القوة والحصانة بحيث استمر حتى مجيء الرحالـة الأوربيين
الذين زاروا المدينة أمثال ماركوبولو الذي يذكر في وصفه لقراقورم " أنه يحيط بها
استحكام حصين من الثرى، نظراً لقلة وجود الحجر بتلك المنطقة " (٦٥)، ويلاحظ أن
الصينيين والمستشرق البريطاني أكدا على بداية بناء قراقورم آواخر حكم أوكتاي.

على أن الدكتور فؤاد الصياد يعارض الرأي القائل بأن أوكتاي بدأ في بنـاء
المدينة ١٢٣٦م / ٦٣٣هـ ويرى أنه بدأ في بناء العاصمة المغولية عام ٦٣١هـ /
١٢٣٤م عندما أمر أوكتاي مهرة المهندسين الصينيين بأن ينشئوا مدينة جديدة فـي
منطقة أوردو باليغ شمال منغوليا، وبالقرب من جبال قراقورم، وعلى اطـلال أحـد
المدن الخربة التي كانت موجودة في عهد الآويغوريين فتم هذا وأطلق على المدينـة
اسم أوردو باليغ، ولكن نظرا لقربها من جبال قراقورم فقد اشتهرت في التاريخ بهذا
الاسم ثم اختارها أوكتاي لتكون عاصمة له (٦٦).

ومن الصعب تقبل هذه الآراء التي تحاول أن تؤكد على أن أوكتاي بدأ فـي
تشييد المدينة آواخر حكمه لأنها تتعارض مع روايات المصادر المغولية التي تؤكـد
على أن أوكتاي بدأ في بناء المدينة في خلال السنوات السبع لحكمه أي منـذ بدايـة
توليه عرش الخانية عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨-١٢٢٩م، وتذكر الرواية المغولية أنه تم
بناء مدينة قراقورم بمنشأتها أو عمائرها العسكرية والمدنية في زمن قياسي أي خلال
الفترة التي قضاها أوكتاي في الحكم (سبع سنوات) وذلك يرجع إلى كثـرة المـال
وفيضان المواهب وغزارة الرغائب "(٦٧) ولدينا رواية نادرة ورائعة للجويني تـذكر
أن أوكتاي كان يتابع عمليات بناء المدينة وتشييد قصوره بها بنفسه بقولها " وأنشغل

الملك بمهمة البناء ،(٦٨) فكان ذلك عاملا هاما في سرعة بناء المدينة وتشييد العمائر بها ،

وتوضح الروايات المغولية أن القآن أوكتاي لم يجعل مدينة قراقورم مدينة ملكية تخص الأسرة المالكة المغولية فقط بل جعلها عاصمة سكنية للمغول وغير المغول بكافة طبقاتهم، وبدأ أوكتاي اولا بإقامة العديد من المتنزهات من الحقول والبساتين فوق بعض الروابي التي تحيط بالمدينة وجعل لها أربعة ابواب: بوابة تمثل ممر خاص للملك وبوابة لأولاده وأقربائه، وثالثة لزوجاته ورابعة لدخول العامة وخروجهم ، (٦٨) ثم بدأ بعد ذلك بناء القصور الملكية الخاص به وبأفراد الأسرة الحاكمة وحاشيته سواء في وسط قراقورم أو حتى في المناطق المحيطة بالمدينة كما أقام العديد من القصور التي كانت بمثابة مشاتي ومصايف بالنسبة إليه ولأفراد أسرته وحاشيته في ضواحي المدينة، ومن المهم جداً أن نذكر أن الروايات المغولية تؤكد حرص القآن أوكتاي أن يقوم بتخطيط وهندسة تلك القصور مهندسون مسلمون، ولم توضح الروايات المغولية الأقاليم التي أتوا منها ممن غزاها المغول، ويرجح أنه تم استقدامهم أو كانوا من ضمن الآسرى من بلاد ما وراء النهر وإيران حيث اشتهرت هذا البلاد بالطرز المعمارية الفريدة والراقية، كما حرص أوكتاي قآن على أن يقوم ببناء هذه القصور بناءين أو معماريين من بلاد الخطا (الصين) الذين يبدو أنه كان لديهم براعة. في بناء أو تشييد القصور (٦٩) لكي تأتي هذه القصور والمباني خليط من الهندسة والفنون الإسلامية مع العمارة الصينية.

وبنى المعماريون الخطائيون قصر القآن في وسط المدينة له العديد من الأبواب التي تتصل ببوابات المدينة، وبنوا له عرشا بثلاثة أجنحة: الأول للملك والثاني للملكة والثالث للسقاة والطباخين، وعلى يمين القصر ويساره بنيت منازل الأخوه والأبناء والحرس الخاص للقآن، وزينوا القصر والعرش ومنازل أو قصور

بقية أفراد الأسرة المغولية الحاكمة بنقوش وزخارف رائعة للغاية. ويبدو أن مباني أو منازل السقاة والطباخين وأرباض الفيلة والجمال والخيول قد الحقت بالقصر الملكي وكل ما يلزم القصر وسكانه من مأكل ومشرب. (٧١) وتوضح الرواية المغولية ذلك وتزيده تفصيلا بقولها ووضعوا في مساكن السقاة جرارا ضخمة لا يمكن حملها أو نقلها كما بنوا كل ما يلزم للآلات الأخرى أو المرابض الفيلة والجمال والخيول ومنازل مخصصة للمشرفين عليها حتى إذا اقيم احتفال بالقصر جيء بالأشربة والأطباق الذهبية والفضية والمرصعة بسهولة (٧٢).

ويبدو أن هذا القصر الذي أتخذه أوكتاي قاآن مقراً للحكم والسكنى في نفس الوقت، كان يتسم بالفخامة والاتساع على نفس نمط القصور التي بنيت في بلاد الخطا وأقاليم ما وراء النهر وإيران، ويصف رشيد الدين إتساع وفخامة وضخامة القصر الملكي لأوكتاي بقوله " أمر بأن يشيدوا (المعماريون الخطائيون) في منطقة قراقورم - حيث كان يقضي أغلب أوقاته المباركة - قصراً عالي البنيان، رفيع الأركان إلى أقصى حد، ويليق بالهمة العالية لملك مثله طول كل ضلع من أضلاعه، يبلغ قذفة سهم بعيد الرمي كما شيدوا في وسطه جوسقا في غاية العلو والارتفاع، وأنجزوا تلك العمارات بأبهى نسق وأكمل نظام، كما زينوها بفنون النقش والتصوير(٧٣) التي جلبها معهم المهندسون والبناءون الخطائيون والمسلمون من اقاليم الخطا وبلاد ما وراء النهر وإيران، وتذكر الرواية المغولية أنه أطلق على هذا القصر اسم " قرشي " ومعناها بالمغولية قصر الخان، وأتخذه القاآن أوكتاي مركزا لحكمه "(٧٤).

وأكدت رواية رشيد الدين على رواية زميله الجويني عن بناء قصور بقية أفراد الأسرة الحاكمة المغولية وحاشية القاآن وحرسه الخاص حول قصر القاآن الأعظم بقولها: " ثم صدر فرمان يقضي بأن يبنى كل من الأخوة والأبناء وسائر

الأمراء الذين كانوا يلازمونه دورا فخمة عالية حول القصر، فأمتثلوا جميعا للأوامر". [٧٥] وتشيد الرواية المغولية بمدى فخامة وروعة وضخامة قصور القاآن وأفراد أسرته ومنازل حاشيته القاآن من خدم وأتباع وسقاة والحرس الشخصي الخاص به قائلة " وبعد أن شيد تلك المباني وأتصل بعضها ببعض، بدت مجمعا من العمارات المكتظة والبالغة حد الروعة والترف "[٧٦]

والواقع أن أوكتاي قاآن الذي أبى إلا أن يجعل من قصوره في قراقورم وقراقورم نفسها تنافس وتفوق قصور ومدن اباطرة الصين، وقصور ومدن بلاد المسلمين في بلاد ما وراء النهر وإيران ومصر والعراق بل والأندلس نفسها، جعلته يطلب من أمهر الفنانين الصياغ بأن يصوغوا أو يصنعوا المجلس الشراب الخاص بالقاآن أواني من الذهب والفضة على شكل تماثيل في هيئة حيوانات كالفيل والأسد والحصان وغير ذلك. ويبدو أنهم صنعوها بطريقة هندسية معينة تتسم بالمهارة والدقة بحيث جعلوها بمثابة دنان للخمر (أي أوعية ضخمة للخمر) فكانوا يملأونها بالشراب والقميز، وصنعوا أمام كل واحدة من هذه الدنان التي صيغت أو صنعت على شكل حيوانات حوض من اللجين (أي الفضة) فكان الشراب يسيل من منافذ تلك الحيوانات، وينساب في تلك الأحواض "[٧٧].

ويبدو أن هذا القصر الذي بناه القاآن أو كتاي كان بالقرب من السور الحصين الذي بناه حول المدينة لحمايتها من أية اعتداءات خارجية، ويبدو أنه كان حريصا في بناء قصوره بحيث يجعلها بمثابة قلاع حصينة ومنيعة في مواجهة أية هجمات أو أخطار خارجية، ويؤكد على ذلك ما ذكره الرحالة الإيطالي البندقي ماركوبولو عند زيارته لقراقورم، أثناء قا آنية قوبيلاي حفيد جنكيز خان الذي كان قد نقل مقرإقامته حكمة من منغوليا إلى الصين كما نقل العاصمة من قراقورم إلى مدينة بكين (كانبالو) حيث يشير ماركوبولو ضمن أوراقه إلى القصر الذي بناه

أوكتاي قائلا " وخارج ذلك الاستحكام الذي يحيط بالمدينة، وعن كثب منه، تقف قلعة ضخمة، فيها قصر جميل، يشغله حاكم المكان " (٧٨)

ولم يكتف أوكتاي بهذا القصر كمركز للحكم وسكن له ولأسرته وحاشيته، بل كان حريصا على إقامة العديد من القصور خارج قراقورم نفسها وقريبة منها يقضي فيها فصول السنة فيما يعرف في المصادر المغولية بالمشاتي والمصايف، وتؤكد الروايات المغولية على ذلك عندما تذكر أن أوكتاي كان ينزل بقصر الحكم مرتين في السنة، ثم يقيم بقية أيام أو فصول السنة متنقلا بين القصور التي بناها خارج قراقورم وبالقرب منها في أقليم قراقورم(٧٩). وهذا يؤكد على مدى اتساع رقعة العاصمة قراقورم.

وعلى مسيرة يوم من قراقورم بنى قصراً يضاهي قصر الحكم فخامة وروعة ليكون متنزة له ليقضي فيه فصل الربيع، وتذكر الرواية المغولية أنه استعان في هندسة هذا القصر بمهندسين مسلمين ربما من الأسرى الذين جلبوا من بلاد ما وراء النهر أو إيران بعد غزو المغول لهم وجعل من يقوموا بالبناء من الختائيين تحت اشراف هؤلاء المهندسين المسلمين(٨٠). وتضيف الرواية المغولية مدى فخامة وروعة هذا القصر بطرزه المعمارية الفريدة التي تعتبر مزيج من العمارة والهندسة والفنون الإسلامية والعمارة الصينية وهو قصر جميل شاهق محلي بأنواع النقوش والفرش الملونة، وبنوا عرشه في صدر البناء وفي مجلس الملك أنواع نادرة من الأواني والخوابي الياقوتية الحجر، والمرصعة باللآلئ، وإلى جانبها ما يناسبها من وآدان أوأن، وفي القصر حوض وجداول فيها من الطيور (من بنات الماء) السابحة عدد كثير وكانوا يتمتعون بصيدها، وبعد ذلك ينعمون بالشراب، وبساط الكرم فيه لا يغلق ولا يطوي، وفي كل صباح يوزع هباته طيلة بقائه في القصر (٨١). وتذكر

الرواية المغولية أن اوكتاي كان يقيم في ذلك القصر طيلة فصل الربيع نظراً لوفرة الحيوانات هناك(٨٢).

وقد طلب القاآن اوكتاي من مسلمي أوران التي تقع على مسيرة يوم من قراقورم أن ينشأوا جوسقاً في الموضع الذي كان قديما خاصا بحراس افراسياب ويسمى بالمغولية كرجاغان(٨٣) وذلك لتشجيع الناس على اقامة العمائر والأدر.

أما فصل الصيف فكان اوكتاي يقضيه بين الجبال القريبة من قراقورم كما تذكر رواية الجويني حيث بنى المعماريون الختائيون بلاطا جدرانه خشبية مخللة ونوافذه مذهبة وسقوفه مغطاة باللباد الأبيض وأطلق على مصيفه هذا اسم " سيبرة أوردو "(٨٤). وتذكر الرواية المغولية أسباب اختيار اوكتاي لهذه البقعة لتكون مصيفا له ولأسرته، أن هذا المكان يتصف بتوافر المياة الباردة والأعلاف الوافرة(٨٥) على أن رواية رشيد الدين حول مصيف أوكتاي بالقرب من قراقورم تختلف قليلا فتذكر أنه كان يقيم في " مروج أورمكتوا " حيث كان يضرب سرادقا كبيرا يسع لألف شخص وهو مقام على الدوام، وكان مزودنا من الخارج بمسامير ذهبية، أما داخله فكان موشي ومبطنا بالنسيج ويطلق عليه " سره أوردو "(٨٦)، وتوضح الرواية المغولية أن هذا السرادق كان أشبة بخيمة ضخمة تشبة إلى حد كبير خيام المغول التي اعتادوا على استخدامها عندما كانوا في مرحلة البداوة الأولى في منغوليا وقبل أن يتحرروا ويخرجو في غزواتهم وفتوحاتهم ويؤسسوا امبراطوريتهم.

أما فصل الخريف فقد كان قاآن المغول يقضيه في ناحية تقع ما بين " ناوور " و" أوسن قول " على مسيرة أربعة أيام من قراقورم حيث كان يقضي هناك حوالي اربعين يوما (٨٧). أما مشتاه فكان في موضع يسمى " أونك قين " وكان يقضي وقته هناك في الصيد في جبال بولنكووجالينكو (٨٨).

وتوضح الرواية المغولية أن معظم هذه القصور الصغيرة والسرادقات التي أقامها في ضواحي مدينة قراقورم تمثل جزءاً من مباني المدينة أو الأقاليم الذي بنيت فيه العاصمة، وتذكر الرواية المغولية أن القا آن أوكتاي عندما كان يعتزم السير من مشتاه في " أونك قين " عائداً إلى قراقورم، كان ينزل في جوسق ضخم، أقامه على بعد فرسخين من قراقورم وسماه " تزغو باليق أو تزغوشهر "[٨٩] في حين تذكر الرواية المغولية الأخرى لجهانكشاي أنه في هذا الموضع بنى قصر صغير على حافة تل على بعد فرسخين من قراقورم، كان يقيم به في وقت ذهابه إلى مشتاه وعودته منه، قبل أن يواصل سيره إلى قصر الحكم في قراقورم وأسماه "تزغوباليغ٨٩م " حيث كان القاآن يمضي وقتا قصيراً في هذا القصر الصغير أو الجوسق الذي يتسم ايضا بالفخامة والأبهة، حيث يتناول أطايب الطعام والشراب والأنس والمتعة، وفي اليوم التالي كل من كان في معية القاآن من أفراد أسرته وحاشيته وخدمه يرتدون ملابس من لون واحد، ومن هناك يتوجة القاآن ومن معه عائدين إلى القصر الملكي الرئيسي في وسط قراقورم المسمى قرشي.[٩٠] ومن المهم جداً أن نذكر أن قاآنات المغول الذين خلفوا أوكتاي على عرش الخانية مثل كيوك ومنكو قاآن ساروا على نفس خطى أوكتاي في قضاء معظم أيام السنة في التنقل بين القصور بالمصايف والمشاتي التي بناها أوكتاي داخل العاصمة وخارجها [٩١]

وبذلك تؤكد الروايات المغولية على عظم مدينة قراقورم وكثرة مبانيها من القصور والمتنزهات من الحقول والبساتين والجواسق سواء في داخل المدينة أو ضواحيها، والتي أمتدت أميالا خارج المدينة نفسها، وتؤكد مدى ازدها قراقورم التي عجت بهذه الأبنية أو الصروح الضخمة التي كانت تمثل آيات من الفنون والهندسة المعمارية المتقدمة الراقية لكل من فنون وعمائر بلاد ما وراء النهر وإيران.

ويطلع علينا مؤرخ المغول رشيد الدين برواية طريفة ورائعة عندما يذكر أن القا آن أوكتاي قد أقام ساحة ضخمة بجوار القصر الملكي (او ربما أمامه) لتمارس فيها مختلف الرياضات والمسابقات التي أشتهر بها المغول والتي لها علاقة وطيدة بفنون الحرب والقتال لديهم وكانت هذه الساحة الرياضية الضخمة أشبة بالهبودروم في القسطنطينية ويسميها الجويني الميدان (٩٢).

وكانت تقام بها مباريات رياضية كل ليلة طيلة تواجد القآن في قصر الحكم في قراقورم حيث كان يأمر رماة السهام والعجلات والمصارعين بالأشتراك في المباريات ويمنح المكافأت والأعطيات للفائزين في هذه المباريات (٩٣).

وكان المغول مغرمين برياضة المصارعة والمبارزة وكانوا يجدون لذة في مشاهدة المباريات التي كانت تقام لهذا الغرض وكان أوكتاي قآن نفسه حريصاً على استدعاء مهرة المصارعين واللاعبين من أقاليم الخط والقبجاق، ولما أستولى المغول على بلاد ما وراء النهر وإيران صار أوكتاي يستدعي هؤلاء المصارعين واللاعبين وأيضا الحواة من خرسان وهمدان وكذلك من العراق كما أكدت الرواية المغولية (٩٤)، وتؤكد الرواية المغولية أن القآن أوكتاي كان حريصا على مشاهدة هذه المباريات بنفسه.(٩٥) وتذكر رواية رشيد الدين أن أوكتاي كان يميل إلى مشاهدة المصارعين بصفة خاصة ميلا شديداً

ولم ينسى أوكتاي قآن أن يقيم ضمن منشأت ومباني قراقورم نوعية من المباني أو العمائر التي اقامها في ضواحي المدينة – بما يرتبط برياضة الصيد المحببة والمفضلة عند المغول والتي لها علاقة وطيدة بالتدريبات العسكرية عند الجيش المغولي ومناوراته الحربية. فتشير الرواية المغولية النادرة والفريدة لرشيد الدين أن القآن اوكتاي أمر أن يقام في مشتاه " أونك قين " في إحدى ضواحي قراقورم على مساحة ايام قليلة من المدينة جدارا ضخما من الأخشاب والطين

وصنعوا له الأبواب وسموه " جيهيك ". وفي وقت الصيد كانوا يخبرون الجنود في الأطراف لكي يشتركوا جميعا في الصيد، فكانوا يتوجهون إلى هذا الحائط الضخم المصنوع من الخشب والطين حيث يدفعون بحيوانات الصيد، وعلى مسافة شهر من الطريق كانوا يزاولون الصيد لحظة بلحظة، ويطاردون الحيوانات الصيد حتى هذا الحائط الضخم في جيهيك، ثم يحدق بها الجنود، وهم وقوف جنبا إلى جنب، وكان أوكتاي قاآن - كعادة المغول في ممارسة رياضة الصيد - يدخل مع خاصته ويشاهد المباريات مدة من الزمن، ويزاول الصيد بنفسه أولا في فإذ تعب، اعتلى ربوة في وسط الساحة ثم يدخل الأمراء والأنجال والأوامر حسب ترتيبهم، ويأخذ العامة والجنود في الرمي، وعندئذ كان يطلق سراح بعض الحيوانات من قبيل الرحمة والشفقة على حين أن المشرفين على الطبخ (البكاولان) كانوا يقومون بتوزيع كل حيوانات الصيد على كافة طبقات الأمراء والأنجال وقواد الجيش، بحيث أنه لا يبقى هناك أحد بغير نصيب، وكانت تلك الطائفة تنال كافة " ضروب الأعزاز والتكريم، وبعد تسعة أيام من الولائم والاحتفال تعود كل جماعة إلى مواطنها ويعود القاآن إلى القصر الملكي في قراقورم.(٩٧)

وهكذا توضح الروايات المغولية ورواية الرحالة الإيطالي ماركوبولو كيف أن القا آن أوكتاي بإنشائه هذه المباني من القصور والجواسق والمتنزهات في قراقورم وضواحيها أراد أن يظهر بمظهر الحاكم المغولي المتحضر الذي لدية الحس الحضاري المرهف، ويختلف بذلك عن أبيه جنكيز خان ذلك الأمبراطور الدموي، وحتى من جاء بعد أوكتاي باستثناء قوبيلاي فيما بعد والذي كان على شاكلة أوكتاي في الميل إلى الأخذ بأسباب الحضارة والرقي وحب التشييد والتعمير لدرجة أنه اعتبر نفسه وريثا لأباطرة الصين الذين صنعوا حضارة عظيمة راقية، وأراد أوكتاي بذلك أن يغير مفهوم أو فكر شعبه من للمغول تجاه حضارات الأمم الأخرى الراقية

التي غزاها واستباحوها، ويغير ايضا فكرومفهوم الشعوب المغولية الخاضعة لمغول التي كانت تنظر إليهم بأنهم مجموعة من الوحوش أو الذئاب التي لا ضابط لها ولا رابط، لأنهم مجموعة من المتوحشين الذين جلبوا على تعذيب البشر وامتصاص دماء الشعوب ولم تعرف لهم الحضارة طريقا.

وتؤكد هذه المباني الرائعة التي بناها أوكتاي تغير النزعة البدوية التي كانت في نفس أوكتاي وذلك أثر مخالطته للأقوام المتحضرة من الصينيين والأويغوريين ومسلمي ما وراء النهر والإيرانيين، وبفضل تأثير مستشارية فأصبح ينظر إلى الشعوب نظره عطف وشفقة وصار يميل إلى التعمير والتشييد على النحو الذي أكدته الروايات المغولية، ومن المهم جداً أن تذكر أن أوكتاي قد أنفق أموالا طائلة على تشييد هذه المباني والعمائر داخل قراقورم وضواحيها وذلك كشأن الخلفاء والسلاطين في العالم الإسلامي مما حد بالمستشرق الروسي بارتولد لأن يذكر أن أوكتاي قد أرهق خزانة الدولة، وكان في مسيس الحاجة دائما إلى المال لتشييد مبانية وإقامة مأدبة داخل قراقورم ولك يكن يهتم بكا كلف ذلك السكان المحليين من رهق [٩٨].

٤- الدواوين ونظام البريد (اليام) في قراقورم في قاآنية أوكتاي ومنكوقاآن (٦٤٨-٦٥٥هـ / ١٢٥٠-١٢٥٧م)

على الرغم من أن المصادر المتاحة لدينا لم تخصص نصوص قائمة بذاتها تتحدث عن تنظيم الأدارت والدواوين داخل العاصمة قراقورم منذ عهد أوكتاي ومروراً بقاآنية منكو وانتهاء بقاآنية قوبيلاي الذي انتقل من منغوليا إلى الصين وجعل مركز حكم الأمبراطورية في بكين إلا أن هذه المصادر أوردت أشارات وتلميحات في شكل شذرات متناثرة أو مبعثرة في ثنايا رواياتها عن أحداث ووقائع كانت تدور في العاصمة قراقورم خاصة أثناء قاآنية أوكتاي ومنكوقا آن فيما بعد[٩٩].

ورغم أن الشذرات القليلة تكاد لا تشفي غليل الباحث أو تمكنه من تكوين حتى شبة صورة واضحة عن نظم المغول ورسومهم الإدارية داخل مدينة قراقورم مما يصعب مهمة الباحث في ذلك إلا أنها تظهر أن أوكتاي ابى إلا أن يظهر بمظهر الحاكم المغولي ذو الحس الحضاري المرهف وكذلك منكوقاآن. فكان من الطبيعي وهو يؤسس هذه العاصمة وداخلها هذه المباني والعمائر الضخمة الرائعة أن يقيم نظاما إداريا كاملا داخل العاصمة ومركز حكم تلك الإمبراطورية الضخمة، وذلك في سعيه الحثيث وحرصه على جعل قراقورم مدينة عالمية ممتازة تنافس المدن والعواصم المتحضره الأخرى مثل بكين وبغداد والقاهرة وقرطبة.

وعندما استقدم مهندسون ومعماريون أو بناؤون وصناع وحرفيون لكي يضعوا المؤثرات الحضارية الراقية لبلادهم من هندسة وفنون داخل عمائر ومتنزهات وشوارع قراقورم، وكان طبيعيا أن يعمل أوكتاي على اقتباس النظم الادارية التي كانت لدى المسلمين والخطائيين ذوي الحضارات المتقدمة ليضعها في قراقورم، فلدينا رواية للجويني تشير ضمن الدواوين التي أسسها أوكتاي، إلى وجود ديوان لبيت المال الذي كان بمثابة الخزانة المالية للإمبراطورية المغولية حيث خصص جزء منه كان يمنح لطبقات السكان داخل العاصمة قراقورم. وتؤكد الرواية المغولية على أن السادة والغلمان والشرفاء والمساكين والعجائز والرضع، كل واحد منهم كان له نصيب في بيت مال المغول طبقاً لأوامر وتعليمات القاآن أوكتاي[١٠٠] ويتضح هنا مدى التأثير الإسلامي على النظم الإدارية عند المغول أثناء قاآنية أوكتاي، وتأثر أوكتاي نفسه بالفكر الإسلامي وتشير الرواية المغولية في موضع اخر إلى وجود ديوان في العاصمة المغولية يعرف بديوان الرسائل عين عليه أوكتاي مشرفا يعرف بصاحب الرسائل [١٠١]، وكان من الطبيعي أن يوجد مثل هذه الديوان الذي كان مختصاً بكتابة الرسائل وختمها المرسلة من قبل القاآن المغولي وتحمل

تعليماته وأوامره إلى جميع نوابه وقاداته ورعاياه في كافـة أنحـاء الإمبراطوريـة المغولية على النحو الذي أكدته الرواية المغولية.[١٠٢] وتوضح أيضا أن هذا الـديوان قد اقتبسه أوكتاي قاآن من النظم الإسلامية التي وجدها في بـلاد مـا وراء النهـر وإيران، وتوضح الرواية المغولية لدينا استمرار وجود ديوان بيت المال أثناء قاآنية كيوك (٦٤٤-٦٤٧هـ / ١٢٤٦-١٢٤٩م). وتشير الرواية المغولية أن هذا الديوان استمر يؤدي وظيفته في دفع رواتب الجند والمـوظفين الإداريـين فـي العاصـمة قراقورم وتخصيص مرتبات لرعايا أقاآن[١٠٣] داخل منغوليا. وعلى الرغم مـن أن المغول أنشأوا نظاما للبريد ومحطات للبريد عرفت بإسم " تايان يام " [١٠٤] للربط بين كافة أقاليم الإمبراطورية المغولية وضمان سرعة وصول تعليمات القاآن والأخبـار الخاصة بالأقاليم الخاضعة للحكومة المغولية المركزية بقراقورم، ولتـسهيل انتقـال مبعوثي القاآن وحاملي رسائله وتقديم كافة التسهيلات من أموال وأطعمـة وخيـول لحاملي البريد [١٠٥]، إلا أن أوكتاي قاآن قد أقام نظاما للبريد خاص بعاصمة الدولـة (قراقورم) كان يسمى " نارين يام " [١٠٦] تمييزاً له عن البريد العادي المعروف بإسم تايان يام، ويذكر بارتولد أن هذا البريد الخاص بالعاصمة كان يـسمى " ناريـت أو بارين تاريت " [١٠٧] وكان تأسيس هذا البريد الخاص بالعاصمة المغولية لكي يربطها فقط ببلاد الخطا (الصين الشمالية)، وتوضح الرواية المغولية النادرة أن أوكتاي أسس هذا البريد الخاص بالعاصمة من منظور إداري وإقتصادي فكان بالطريق قراقورم إلى الصين سبعة وثلاثون ياماً (محطات للبريد) يفصل بين كل واحد منها والأخـر خمسة فراسخ (حوالي العشرين ميلا)، وكان بكل محطة بريد فرقة مكونة من ألـف جندي وظيفتها حراسة هذه المحطات البريدية، وكانت تخصص لمحطات البريد يوميا خمسمائة عربة محملة بالأغذية والأشربة والمؤون، وكان يـتم حفظهـا بمخـازن الأطعمة، وقد خصصت لهذا الغرض عربات كبيرة يجر كل واحد منها سـتة مـن

الثيران[١٠٨] وتذكر الباحثة البريطانية هيلدا هو خام أن طريق البريد الأمبراطوري الذي أقامه أوكتاي عام ١٢٣٥م / ٦٣٢هـ ليربط بين العاصمة قراقورم والصين ومحطات البريد المتعددة التي كان يقوم على خدمتها عمال السخرة وتصل إليها السلع الأساسية، قد وفرت المأوي والمؤون خاصة الخيل القوية للإتصالات الأمبراطورية [١٠٩].

ويؤكد على تفسيرنا وتحليلنا للرواية النادرة والقيمة لرشيد الدين من أن أوكتاي قد أقام نظام البريد الخاص بالعاصمة وربطها ببلاد الخطا فقط أن الدافع له كان اقتصاديا، وأن أوكتاي بفكره وعبقريته رأى في خلال قاآنيته أن العاصمة لم تعد بحاجة إلى جلب أو استيراد من الأقطار الغربية وهي السياسة التي سار عليها من قبل جنكيز خان فصارت قراقورم بذلك تتسلم حاجاتها من الأغذية من الصين وحدها [١١٠]، على أنه يلاحظ أن الحرب التي نشبت في فترة من الوقت بين قوبيلاي وأريق بوكا حول عرش القا آنية بعد وفاة منكو أدى إلى انقطاع وصول المواد الغذائية من بلاد الصين حيناً من الوقت، مما أدى بالتالي إلى حدوث مجاعة بالعاصمة حتى انتهاء تلك الحروب على النحو الذي ذكره المستشرق الروسي بارتولد [١١١].

ومن المهم جداً أن،ذكر أن أوكتاي وضع ضمن النظم الإدارية وظيفة أو منصب أمير مقاطعة أو أقليم قراقورم الذي يشتمل على العاصمة نفسها، مركز حكم القاآن على اساس أن يعهد إليه بمسئولية العناية والاهتمام بالأقليم وقت انشغال القاآن بمهام الأمبراطورية المتعددة، وغيابه عن العاصمة. ويؤكد على ذلك أنه يرد ذكر هذه الوظيفة عند حضور أفراد الأسرة الحاكمة وآل جنكيز خان إلى القوريلتاي الذي عقد في قراقورم وفيه انتخاب منكوقاآنا. فتشير الرواية إلى وجود أمير يعرف باسم قنقورتقاي وكان أميراً على قراقورم [١١٢].

وعندما توفي كيوك خان وتولى بعده منكوقاآن(٦٤٨-٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م) وانتقل الحكم بذلك إلى أولاد تولوي الذين يمثلون الفرع الثاني من أسرة جنكيزخان[١١٣]، وكان منكوقاآن صورة مكررة من أوكتاي، فما إن اعتلى عرش المغول حتى صار يولي الإصلاحات الداخلية والنظم الإدارية عناية كبيرة، فنجح في هذا السبيل نجاحا منقطع النظير، وكان أحسن الحكام الذين ساسوا المغول سياسة بارعة، ورغم حرصه على التمسك بأحكام الياسا والمحافظة على آداب المغول وتقاليدهم إلا أنه كان على شاكلة أوكتاي، فنظراً لطول معاشرته للأمم المتمدنة ولكثرة اختلاطه بالمتحضرين في الأمم المغلوبة، قد خفت فيه إلى حد ما صلابة المغول وخشونتهم وتعطشهم لسفك الدماء، تلك الصفات التي كانت تلاحظ في الحكام الأول من المغول بإستثناء أوكتاي، كذلك أختلفت نظرته في ترتيب إدارة هذه الممالك ومعاملة رعاياه فأصبح سلوكه في هذا السبيل أكثر عدلا وأقرب إلى السياسة التي تشير عليها الممالك المتحضرة على النحو الذي أكدته الروايات المغولية[١١٤].

ومما يذكر لمنكوقاآن بالحمد والثناء أنه خفف الضرائب عن كاهل رعاياه والقضاء على أسباب شكواهم، فأصدر أوامر مشددة إلى الحكام والولاة بتحريم اغتصاب الدواب من الناس وتجنب ظلمهم، وعدم تحميلهم مالا يطيقون[١١٥].

وقد عمل منكوقاآن على أحداث ثورة في النظم الإدارية داخل مدينة قراقورم فقرر تطوير هذه النظم وإدخال العديد من الإصلاحات بها، ولذلك استدعى طائفة من الإيرانيين المستنيرين وطلب إليهم تنظيم الإدارات والدواوين في قراقورم على أسس صحيحة، وأكدت الروايات المغولية على ذلك، وأجمعت على أهمية هذه الإصلاحات في النظم الإدارية ودواوين العاصمة المغولية.وبدأ القاآن منكو هذه الإصلاحات الإدارية داخل العاصمة بأن عين الأمير منكاسارنويان مع طائفة من الأمراء الأكفاء ببحث كل ما يرتبط بشئون الجمهور ومشاكله وقضاياه داخل العاصمة المغولية،

وتمهيد قواعد العدل[116]. كما،عين بلغاي آقا الذي كان متميزاً بسابقة حقوق الخدمة، رئيسا للدواوين وكتاب الـدواوين ووزيـرهم[117] داخـل العاصـمة، وأن يكتـب المنشورات والفرمانات التي يصدرها القاآن وينسخها[118]. وتذكر الرواية المغوليـة الأخرى أن بلغاي كان كالحاجب تعرض عليه حاجات الناس فيصوغها ويعرضـها على القاآن ويكتب له المناشير[119]. واتخذ ايضا العديد من الكتاب المـسلمين فـي الداوين وأختص بعضهم ليكونوا قريبين منه أمثال الأمير عماد الملك والذي كان يقوم على الخدمة في عهد القاآن أوكتاي وفي عهد كيوك خان[120]. كما كان الأمير فخـر الملك من خواصه وهو معروف أنه كان من قدماء خواص الحـضرة القاآنيـة[121]. وعدد أخر من المغول، لكنهم يشتركون مع الأمير بلغاي في إدارة الدواوين داخـل العاصمة وخارجها. وقد حدد القاآن منكو لكل فرد في إدارات ودواوين الإمبراطورية داخل العاصمة مهمة معينة أو اختصاصات معينة يقوم بتأديتها على أن يرجع جميع الموظفين والكتاب في النهاية للقا آن منكو ليعرض عليه الأعمال الإدارية التي نفذت وأنجزت ويأخذ تعليمات وأوامر القاآن[122]

ولم يكتف القاآن منكو بهذا التنظيم والتطوير داخل النظم الإدارية والدواوين في العاصمة قراقورم بل عين اثنين من المساعدين لرئيس الدواوين والكتاب – بلغاي آقا لمساعدته في إدارة الأمور الديوانية لا سيما في تحديد الضرائب وتحديد المهـات الأخرى، كما عين فوجاً من الموظفين ذوي الخبرة لمتابعة أمور التجـارة والتجـار وأصحاب السوق داخل مدينة قراقورم وكذلك متابعة التجار الوافدين إلى المدينة من كل أنحاء الأمبراطورية المغولية وخارجها ببضائعهم وتجاراتهم[123]. وتكون ضمن مهام هؤلاء الموظفين داخل العاصمة تقييم البضائع والسلع التي ستباع داخل أسواق الحاضرة المغولية، فهناك طائفة من الموظفين لتقييم الجواهر، وجماعة لتقييم الثياب، وقوم لتقييم الفراء وفوج لتقدير قيمة النقود سواء الذهبية أو الفضية[124]. ويبـدو أن

الهدف من تقييم هذه السلع والبضائع التي يجلبها التجار إلى العاصمة أن يتم بيعها بعد ذلك بأسعار تكون في متناول الناس داخل العاصمة قراقورم. ولم يكتف القآن منكو، ضمن تطويره للنظم الاقتصادية والديوانية وتنظيم سير الحياة الاقتصادية داخل قراقورم والتي أكدت على الفكر المستنير والراقي للقآن المغولي الذي يمكن القول بأنه فاق أوكتاي قآن في هذا الجانب، أنه عين عدد من الرجال أو من موظفي الدواوين لهم اختصاصات متعددة تخص جوانب إدارية واجتماعية ودينية داخل العاصمة، فكان منهم رجال اختصوا بضرب الأختام، ومنح الأوامر الملكية، والإشراف على دار السلاح أو معامل الأسلحة (أي مصانع الأسلحة) وعلى الطيور وجوارح الصيد على المشرفين عليهم (١٢٥). كما عين بعض الرجال لتنظيم مهام أهل كل ملة وكل طائفة داخل العاصمة قراقورم وخارجها(١٢٦). وتوضح الرواية المغولية الأخرى هذا الأمر عندما تذكر أنه عين رجل أو اثنان اختصا بأمور الأئمة والسادات والفقراء والنصارى والأحبارمن جميع الأمم(١٢٧). وقد أصدر القا آن منكو أوامر وتعليمات صارمة ومشددة لهؤلاء الموظفين والكتبة لتنفيذ كل هذه الأوامر والتعليمات بدقة للحيلولة له دون انتشار الرشوة أو تسول للبعض نفسه منهم أن يطمع أو يزيد في كسبه، وأن على أولئك الموظفين الا يعتقلوا أي شخص أرتكب خطأ أو معاقبته ممن هم مسئولين عن متابعتهم إلا بعد الرجوع إلى القآن شخصيا" (١٢٨).

ولما كان القآن منكو لم يكن يعرف العنصرية، أي التعصب للجنس المغولي فقط عندما فكر في تطوير وإصلاح نظم المغول ورسومهم الإدارية داخل قراقورم، أو التعصب لديانة معينة أو مذهب معين، فقد كان حريصا على تعيين كتاب الدواوين من غير المغول الذين كانت لديهم الخبرة الكبيرة في مجال الكتابة الديوانية خاصة في ديوان الرسائل أو الإنشاء داخل العاصمة المغولية، وهو الديوان الذي وضعه من قبل القآن أوكتاي، فأصبح كتاب هذا الديوان وغيره من أجناس وعناصر متعددة

يكتبون بلغاتهم إلتي يعرفونها فكان منهم الفارسي والأويغوري، والخطائي، والتبتي والتنكوتي (أو التنكقوني) حتى إذا ما كتبوا الفرمانات إلى جهة تصدر بلغة أهلها وخطهم(١٢٩).

وهكذا أكدت المصادر المغولية في رواياتها النادرة والهامة على مدى الرقي والتطور الذي وصلت إليه مدينة قراقورم في الجانب العمراني والإداري، ومدى حرص كل من القآن أوكتاي والقآن منكو بعد ذلك، على اظهار الحاضرة المغولية كأحدى العواصم العالمية الممتازة التي يمكن أن تنافس عواصم بلاد الختا وبلاد العالم الإسلامي في الرقي والتقدم الحضاري، وتظهر مدى الجهود الضخمة التي بذلها كل من القا آن أوكتاي لبناء وتأسيس العاصمة قراقورم معماريا، والقآن منكو لتنظيم الإدارة وتطويرها داخل قراقورم، وإذا كان القآن أوكتاي محبا للبناء والتشييد عندما شيد هذه الصروح العملاقة من المنشأت المدينة والعسكرية داخل قراقورم وفي ضواحيها، فإن القآن منكو قد تفوق عليه في الجانب الإداري من حيث التطوير أو الثورة التي أحدثها داخل دواوين وإدارات العاصمة قراقورم، وتنظيم مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية داخلها، ويظهر بذلك بمظهر الحاكم المغولي المستنير الذي يتسم بالرقي والتقدم الفكري.

ثانيا: مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة قراقورم:

١- مظاهر الحياة الاقتصادية في قراقورم.

أ- الزراعة:

قد يبدو هذا العنصر مثيراً للدهشة والاستغراب لدى الباحث أو القارئ أو ربما يعتبره نوعا من الخيال الجامح لدى الباحث في محاولته أن يؤكد على معرفة المغول للزراعة والصناعة والتجارة، وأن محاولة تأكيد هذه الحقائق مع مثل هذا

الشعب الدموي البدوي الذي لم يعرف في حياته نوعا من الاستقرار بل كانت حياته دائما حياة تنقل وترحال بحثا عن المراعي والكلأ. وكانوا يحتقـرون الفلاحـين أو المزارعين سواء قبل خروجهم من منغوليا وظهور جنكيزخان وحتى بعد خـروجهم من منغوليا لغزو العالم المعروف وقتذاك، مما يجعل تناول هذا العنصر نوعا مـن المغامرة المحفوف بالمخاطرة خاصة أن قسوة منـاخ منغوليـا المـوطن الأصـلي للمغول. وسرعة تغيره في بلوغة النهايات القصوى في الحرارة والبرودة وفي جفافة الشديد وفي قوة رياح الأقاليم التي لا حد لها، والذي كان سببا في فقر الحياة النباتية بها، بالإضافة إلى طبيعة التربة في اراضي الأقليم، قد تحول دون قيام أي نوع مـن أنواع الزراعية لعدم ملائمة المناخ والتربة، يضاف إلى ذلك أن المغول لم تكن لديهم خبرة تذكر في مجال الزراعة واستمروا على ذلك حتى ظهر جنكيزخـان وبدايـة تأسيسه امبراطوريته الضخمة، وتذكر الباحثة البريطانية هيلداهوخام أنه عندما غزا جنكيزخان البلدان الغربية لم يكن في مخازنه مكيال واحد من الأرز أو الغـلات أو حتى ياردة من الحرير، ولهذا اعتمد جنكيزخان على استيراد أو جلب الغلات والمواد الغذائية الأخرى إلى منغوليا من الأقاليم التي غزاها او التي لم يقم بغزوهـا، عـن طريق التجار المسلمين في محاولة لسد احتياجات أقليم منغوليا وعاصمة قراقورم من الأطعمة أو الأغذية التي كان يأتي معظمها من أسيا الوسطى أو من أقاليم مـا وراء النهر، ولهذا فإن جنكيزخان ربط مصيره ومصير أقلبم منغوليا بالتجار المسلمين التي كانت تتمركز في أيديهم تجارة وجميع مناطق آسـيا الوسـطى، ولـذلك حـرص جنكيزخان على تأمين جميع الطرق التجارية القادمة من أقاليم أسيا الوسطى وبلاد ما وراء النهر متجهة نحو منغوليا وأتخذ من أجل ذلك أجراءات صارمة لتأمين وصول التجارات والسلع الأساسية ومنها المواد الغذائية إلـى أقلـيم منغوليـا والعاصـمة قراقورم(١٣٠).

ويذكر المستشرق الروسي باثولد أن جنكيزخان كان يستورد الغلال والمواد الغذائية الأخرى لأقليم منغوليا من الصين إلا أن العمليات العسكرية التي وقعت بالصين الشمالية وغزوه لها أدى إلى تخريب تلك البلاد فكانت الغلال تردإلى منغوليا من وراء الجبال الشمالية(١٣١)، "وكان يقصد من وراء الجبال الشمالية" هو ضفاف نهر الينسي حيث كان يزرع القمح طبقا لما ذكره الرحالة الصيني تشانج تشؤن(١٣٢)، وحيث وجد هناك عدد كبير من المدن والقرى، ويذكر الرحالة الصيني تشانج تشؤن أن الوسطاء في هذه التجارة هم البرابرة التجار من الأقطار الغربية (١٣٣) وربما يقصد بذلك التجار المسلمون، وكما هو معلوم جيداً فإنه حتى التجارة بين الصين والمغول ومنها تجارة الغلال كانت في أيدى التجار الأويغور والمسلمين (١٣٤)، ولهذا فإن مصالح جنكيزخان كانت تتفق - كما ذكرنا - مع مصالح هؤلاء التجار المسلمين ويكفي أنه من أجل هؤلاء التجار ومصالح جنكيزخان الحيوية معهم، حمل جيوشه الجرارة فيما بعد لهدم السلطنة الخوارزمية وأجتياح مدنها وجعل أراضيها ومدنها قاعاً صفصفاً تنعى من بناها.

وبإعتلأ أوكتاي عرش القآنية منذ عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م وتأسيسه العاصمة قراقورم بمبانيها وعمائرها الرائعة ووضع نظم إدارية ورسوم جديدة للمغول داخل العاصمة الجديدة، أرتأي أن يغير السياسة التي سار عليها والده جنكيزخان التي كانت تقوم على جلب جميع المواد الغذائية والأشربة، بإستثناء شراب القمز من خارج منغوليا سواء من بلاد الخطا أو البلدان الإسلامية واضعا في اعتباره احتمال أن تنقطع أو يتوقف وصول هذه الغلال وغيرها من المواد الغذائية مثل القمح إلى منغوليا عامة وإلى قراقورم خاصة، بسبب استمرار العمليات العسكرية داخل هذه الأقاليم، وقيام اضطرابات أو ثورات داخل هذه الأقاليم التابعة للمغول، مما يهدد بإنقطاع وصول التجار إلى العاصمة المغولية بهذه الغلال وحدوث مجاعات وأزمات

اقتصادية داخل العاصمة المغولية، ولهذا بدأ يفكر في وضع سياسة تظهر تغير الفكر المغولي الجذري في الجانب الاقتصادي، وتغير الحرفة الرئيسية للمغول وهي الرعي، وضرورة تحقيق أكتفاء ذاتي من الغلال مثل القمح وبقية الحاصلات الزراعية الأخرى للعاصمة المغولية، مع الإبقاء على جلب بعض الحاصلات الزراعية التي لا يمكن توافرها أو زراعتها في محيط مدينة قراقورم.

ولما كان أقليم قراقورم الذي تقع المدينة في وسطه تجري به الكثير من الأنهار وعلى رأسها نهر الأورخون الكبير الذي تقع المدينة على الضفة اليمنى منه، على النحو الذي أكدت الرواية المغولية[١٣٥]، وبالتالي وجود التربة الخصبة الملائمة لزراعة أنواع من الحاصلات تتفق مع وطبيعة التربة الطبيعية مناخ هذا الإقليم، لهذا فكر أوكتاي في زراعته أو أقامه زراعة في المناطق المحيطة بالعاصمة المغولية بحيث تشمل زراعة بعض الخضروات والفاكهة والغلال وتشير السطور القليلة للغاية التي وردت في المصادر المغولية أن القاآن بدأ يشجع الناس على الزراعة ورصد مكافأت مالية ضخمة تمنح لكل من يقوم بزراعة أكبر مساحة من الأراضي باقليم قراقورم على النحو الذي أكدته المصادر المغولية وذلك تشجيعا للناس على الزراعة وبدأ القاآن أوكتاي أولا بتجربة زراعة نبات الفجل خارج محيط المدينة وأكدت الرواية المغولية النادرة على ذلك بقولها " لما لم تكن هناك زراعة في منطقة قراقورم بسبب شدة البرد، بدأوا بتجربة الزراعة في عهد القاآن (أوكتاي) [١٣٧]. وتؤكد الرواية المغولية على نجاح تجربة زراعة الفجل فمنح أصحابها مكافأت مالية ضخمة [١٣٨].

ويبدو أن نجاح زراعة هذا المحصول والمكافأت التي رصدها القاآن أوكتاي لتشجيع الناس على الزراعة شجعت الكثير على الأقبال على زراعة حاصلات أخرى في اقليم قراقورم فتشير الروايات المغولية إلى زراعة البطيخ في مروج أرمكتوا

حيث كان القآن يقضي فصل الصيف في قصره هناك. [١٣٩] كما نجحت زراعة اشجار الصفصاف واللوز بالقرب من الجوسق الذي أمر ببنائه القآن أوكتاي على بعد فرسخين قراقورم وكان هذا المكان يسمى تزغو باليق (أوباليغ)، ولم يكن الشجر ينمو في تلك النواحي لشدة البرد، ولكن عندما نجحت زراعته أمر القآن أن يعطي كل-زارع صرة من الذهب كل شجرة[١٤٠]، وتشير الرواية الغولية إلى أن الرمان كان ضمن الحاصلات التي زرعت في أقليم قراقورم [١٤٠].

على أن الأمر الأكثر أهمية في تشجيع الناس على الزراعة في عهد القآن ما تذكره المصادر المغولية من قيام القآن أوكتاي بزراعة مساحات شاسعة من الأراضي بالغلال وعلى رأسها القمح في اقليم قراقورم وذلك لتحقيق الأكتفاء الذاتي من هذه الغلال للمدينة وللاقليم، إلا أنه حدث في احدى السنوات أن نزل صقيع اتلف القمح وقت نموه مع بعض الزراعات الأخرى مما أدى إلى حدوث أزمة ونقص شديد في محصول القمح وغلاء في الأسعار لدرجة أنه لم يتيسر الحصول على من من القمح بدينار واحد وذلك بسبب اشتداد هذه الأزمة [١٤١م]. وخشية أن يؤدي هذا الأمر إلى احجام الناس عن زراعة القمح أتخذ القآن أوكتاي عدة اجراءات مطمئنة للزراعة ومشجعة لهم على استمرار الزراعة، فأمر القآن بأن ينادوا بألا يدع الأشخاص الذين كانوا قد زرعوا قمحا للهم سبيلا إلى نفوسهم لأننا سنعوضهم من الخزانة عن كل ما خسروه فليسقوا زرعهم مرة واحدة فإذا لم يأت المحصول، فسوف يأخذون عوضه كاملاً من المخزن وكذلك فعلوا.[١٤٢] وتعبر الرواية المغولية لصاحب الجهانكشاي عن ذلك بشكل أخر فتقول " فأرسل مناديا ينادي، لا يتألمن أحد من موت مزروعاته ولا يتكاسلن فليحاول مرة ثانية هذا العام فإن لم يأته مردود فإن خزائن الملك ستفتح ومخازنه ستوزع على المتضررين". [١٤٣] ويبدو أن هذه الاجراءات التي اتخذها القآن المغولي أتت أكلها، فقد شاء القدر كما تؤكد الروايات

المغولية أن غلت الأراضي في السنة الثانية غلال كثيرة بحيث لم يعم هذا الخير على المنطقة منذ زمن.(١٤٤) وتؤكد الرواية المغولية لجامع التواريخ على ذلك بقولها " وفي تلك السنة أنتج الزرع محصولا وافرا لا نهاية له (١٤٥).

ويبدو أن هذه الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي واجهتها العاصمة قراقورم فيما يخص نقص محصول القمح في المناطق الزراعية في اقليم قراقورم جعلت القاآن أوكتاي يفكر بضرورة اتخاذ اجراءات احتياطية أخرى لمواجهة حدوث مثل هذه الأزمة في محصول القمح وكان الأجراء الرئيسي الذي اتخذه هو إقامة مثل ذلك البريد الخاص بعاصمة الدولة والذي يربطها ببلاد الخطا عن طريق سبعة وثلاثين ياما (أي محطات بريدية) في محاولة لتأمين وصول الغلال والمواد الغذائية الأخرى من الصين وذلك لمواجهة أي نقص في القمح والغلال والمواد الغذائية الأخرى التي تحتاجها العاصمة الأمبراطورية(١٤٦).

ويلاحظ أن المصادر المغولية التي لدينا لم توضح إذا كان الفلاحين أو المزارعين الذين قاموا بزراعة تلك المحاصيل أو الغلال في أقليم قراقورم كانوا من المغول أو من غير المغول وإن كنا نرجح أنهم كانوا من غير المغول الذين لم يكن لديهم أي خبره في مجال الزراعة. والمؤكد فيه أنهم كانوا ضمن الأسرى الذين جلبوا من بلاد الخطا وأقاليم ما وراء النهر وإيران ضمن الصناع والحرفيين والبنائين والمهندسين الذين أرسلو إلى منغوليا من أجل تعمير وتشييد قراقورم ايام أوكتاي قاآن، وكان من بينهم هؤلاء الفلاحين، ويؤكد على وجهة النظر تلك ماتذكره الرواية الهامة التي أوردها رشيد الدين عن قيام فلاحين مزارعين مسلمين بالعمل بزراعة الجوز بإحدى ضواحي قراقورم أثناء قا آنية أو كتاي (١٤٦م).

وهكذا أكدت المصادر المغولية على الفكر المستنير للقاآن أوكتاي الذي بدأ يدرك ويعلم رعاياه من المغول بصفة خاصة أن الزراعة تعتبر العماد الرئيسي في

الاقتصاد وجنبا إلى جنب مع حرفة الرعي التي عاشوا عليها ردحا من الزمن، وأن الزراعة كانت تمثل ضرورة أساسية ودعامة قوية بالنسبة لعاصمة الامبراطورية.

ب- الصناعة في قراقورم:

لم تسعفنا المصادر المغولية المتاحة لدينا بنصوص أوروايات كافية تشفي غليل الباحث وتعينه على اعطاء ولو شبة صورة واضحة حول الصناعة أو النشاط الصناعي داخل مدينة قراقورم وبالتحديد منذ عهد القا آن المستتير الفكر والميول أوكتاي ومرورا بقاآنية كيوك ثم منكوقاآن وانتهاء بقاآنية قوبيلاي حفيد جنكيزخان وكل ما أوردته مجرد نتف وشذرات مبعثرة تعطي بالكاد إشارات أو تلميحات حول وجود صناعات مختلفة داخل قراقورم، مما يصعب مهمة الباحث في محاولته لتكوين صورة عن هذه الصناعات داخل حاضرة المغول. وطبقا لهذه المعلومات القليلة التي وردت عرضا ضمن روايات المصادر المغولية، فمن المؤكد فيه أن قراقورم شهدت وجود صناعات وحرف متعددة خاصة منذ عهد أوكتاي قاآن إن لم يكن قبل ذلك، فلا ننسى السياسة التي سار عليها الخان الأعظم جنكيزخان وأبناءه وحفدته من بعده عند غزوهم لأي مدينة من مدن بلاد الخطا أو من مدن السلطنة الخوارزمية بأقاليم ما وراء النهر وإيران حيث كان يتم ذبح غالبية سكان هذه المفتوحة، ولم يكن يبقى المغول إلا على أصحاب الحرف والصناعات في غالبية المدن التي فتحوها سواء في اترار(١٤٧) أوفناكت(١٤٨) أو سمرقند أوبخارى أوغزنة(١٤٩)، حيث كان يتم إرسالهم على الفور إلى قراقورم، بل تشير الروايات المغولية إلى أنه بعد فتح جنكيز خان لمدينة سمرقند أرسل إلى قراقورم ثلاثين ألف من الصناع والحرفيين من أهالي تلك المدينة وحدها ليعملوا هناك لحساب المغول (١٥٠).

كما ذكرنا فقد اتبع المغول هذه السياسة التقليدية في كل بلد غزوه فأصبحت قراقورم غاصة بهؤلاء المهرة من الصناع والحرفيين وكان لذلك أثره الكبير فيما افاده

المغول من حضارة المسلمين وصناعاتهم وفنونهم، وكان من الطبيعي أن يقوم هؤلاء الصناع بممارسة نشاطهم داخل مدينة قراقورم ويقوموا بنهضة صناعية كبيرة داخل المدينة. وتؤكد المصادر المغولية على ذلك عندما تذكر وجود حوانيت أو دكاكين لصناعة وبيع أردية الحرب الخاصة بجند الجيش المغولي المصنوعة من الجلود بجانب الدروع الحربية لقادة هذا الجيش(١٥١)، ويرجح أنه كانت هناك صناعة للسيوف والتروس وآلات الحرب الأخرى في منغوليا عامة وقراقورم خاصة قبل ظهور جنكيزخان وبعده، كما كانت هناك صناعة لنصال الرماح من عظام الحيوانات(١٥٢). ويرجح أن المغول وليس المسلمين فقط أو الخطائيون قد برعوا في صناعة آلات الحرب والقتال للجيش المغولي داخل قراقورم، ويبدو أن المغول برعوا أيضا في صناعة الأقواس وأشتهروا بها حتى قبل أن يخرج جنكيزخان من منغوليا لتأسيس أمبراطوريته الضخمة.واستمرت هذه الصناعة يشتهر بها المغول حتى تولية أوكتاي عرش القاآنية (١٥٣) كما كانت هناك صناعات أخرى غير الصناعات الحربية مثل صناعة كؤوس الخمر وكانت تصنع من قرون الوعول الجبلية والتي كانت منتشرة داخل منغوليا (١٥٤).

وتؤكد الروايات المغولية على وجود معامل أو مصانع للأسلحة داخل قراقورم-بجانب حوانيت أو دكاكين صناعة الأسلحة الخفيفة للجيش المغولي - لصناعة أنواع أخرى من الأسلحة ويرجح لصناعة لبعض المعدات الحربية الثقيلة وذلك في عهد أوكتاي الذي بلغ من اهتمامه بهذه المصانع أنه عين عليها مشرفين لمراقبة أو ضمان الجودة والأتقان في صناعة هذه الأسلحة الخاصة بالجيش المغولي(١٥٥).

ج- التجارة والأسواق التجارية في قراقورم:

أدرك القآن منكو الذي سبق فكره عصره من حكام المغـول أن الزراعـة والصناعة ليستا بكافيتين لتكونا دعامة اقتصادية للحاضرة المغولية، بل لابـد مـن توفير دعامة اقتصادية أقوى من الزراعة والصناعة، وتمثـل ذلـك فـي التجـارة وضرورة تشجيع التجار على المجيء ببضائعهم وسلعهم من كافة أنحـاء الأقـاليم الخاضعة للأمبراطورية المغولية وكذلك غير الخاضعة للمغـول، إلـى الحاضـرة المغولية، خاصة وأن قراقورم كانت بخاصة ملحة إلى العديد البضائع والسلع الممثلة في بعض الحاصلات الزراعية والسلع الأخرى التي لم تكـن موجـودة فـي اقلـيم قراقورم وكان المغول بحاجة ماسة إليها، بالإضافة إلى أنواع كثيرةمن البضائع التي احتاجها المغول منذ عهد أوكتاي مثل الأقمشة والمنسوجات بأنواعها وكذلك الحلـي والأحجار الكريمة والرقيق، وهي كل البضائع أو السلع التي لم تكن متـوافرة عنـد المغول في قراقورم. وعلى الرغم من أن جنكيزخان سبق أوكتاي في اتخاذ العديـد الأجراءات لتشجيع مجيء التجارة والتجار إلى منغوليا عامة وقراقورم خاصة إلا أن جنكيزخان كان يبخس هؤلاء التجار بضائعهم، إلا أن القآن أوكتاي عنـد ارتقـاءه عرشه القآنية اتخذ عدة اجراءات ناجحة لتشجيع مجـيء التجـار بتجـارتهم إلـى قراقورم في محاولته لإنعاش الحاضرة المغولية من الناحية الاقتصادية، فعندما كـان يتوافد التجار إلى قراقورم ويعرضون بضائعهم على القآن كان يختار وينتقي، بـل ويأمر بشراء الجيد والردئ ويدفع أكثر مما يطلبون، كمـا كـان يطلـب مـنهم أن يحضروا بضائع أخرى ويمنحهم عشرة اضعاف أثمانها على النحـو الـذي أكدتـه الروايات المغولية القيمة النادرة. (١٥٦) وعندما اشتكى كتاب الدواوين ممـن عيـنهم القآن أوكتاي لتقييم بضائع هؤلاء التجار سواء من الجواهر أو الثياب أو الفـراء أو حتى قيمة النفود الذهبية والفضية التي كان يشتريها المغول (١٥٧) بأن التجار يطلبون

أثمان هذه البضائع بشكل يزيد عن قيمتها بكثير وأنه لابد أن تدفع قيمتها الحقيقية فقط، فنهرهم القاآن وقال لهم: هذا هو النفع الذي بجنيه من يتعاملون مع خزائننا، وما نرجوه لهم هو المنفعة، فإذا أتى هؤلاء الجماعة (التجار) فأدفعوا لهم حتى لا يعودو خاسرين [١٥٨].

وأتت هذه السياسة لأوكتاي أكلها فانتشرت سمعته العطرة وبذله وإحسانه في الآفاق، فتوافد عليه التجار في قراقورم من كل جنس وصقع [١٥٩]يتوجهون إلى بلاطه ويعرضون عليه بضائعهم فكان يختار وينتقي ويدفع أكثر مما يطلبون.[١٦٠] بل وتذكر الرواية المغولية أنه كان يمنح أثمان هذه البضائع والسلع التجارية دون أن يراها [١٦١] فكان يفد على قراقورم تجار من الهند يحملون بضائع الهند من العاج والتوابل والرقيق [١٦٢]. كما وفد عليه التجار المسلمون من أقاليم ما وراء النهر وإيران[١٦٣] وبعض البلدان الإسلامية التي لم تكن قد وقعت تحت سيطرة المغول سواء من بلاد الشام أو مصر أو حتى عمان جنوب شرق الجزيرة العربية. [١٦٤] ولدينا رواية قيمة ونادرة لرشيد الدين تشير إلى وصول تجار من بغداد ومن أقاليم أخرى من العالم العربي الإسلامي إلى قراقورم في عهد أوكتاي يحملون الملابس والمرصعات والجياد العربية بجانب الجواهر والذهب والفضة وغيرها من البضائع التي اشتهرت بها بلدان العالم الإسلامي التي لم تكن قد غزاها المغول بعد [١٦٦].

وأقيمت العديد من الأسواق داخل العاصمة قراقورم في عهد أوكتاي قاآن لبيع كافة البضائع والسلع من انتاج اقليم قراقورم وأيضا المجلوبة من الخارج مع التجار القادمين من كل حدب وصوب. ويبدو أن الأسواق التي أقيمت في قراقورم كانت علىنمط أسواق بلدان العالم الإسلامي الأخرى حيث خصص لكل نوع من أنواع السلع أو البضائع سوق خاص بها فكان هناك سوق للأشربة، وسوق للأطعمة

وسوق للحاصلات الزراعية وأخر للأقمشة وسادس لبيع الحلي والأواني الذهبية والفضية على النحو الذي أكدته المصادر المغولية (١٦٧).

وتشير الروايات المغولية أن القاآن اوكتاي كان يحلو له دائما ويحرص على المرور بتلك الأسواق بطريقة منتظمة للأطمئنان على سير الحركة التجارية بها مثل سوق الأشربة عندما مر به في احدى المرات ووقع بصره على بائع عناب، فمال إليه أو تاقت نفسه إليه فلما ترجل أمر حاجبه دانشمند بأن يشتري له عنابا ببدرة واحدة أي بربع بالش (العملة المغولية) من هذا الدكان، فذهب وأتى بطست مملوءة بالعناب وتذكر الرواية المغولية أنه لم يكتف بدفع ربع بالش لصاحب العناب بل منحه عشرة بالشات أي أكثر من ثمنه(١٦٨). ويلاحظ أن القاآن أوكتاي لم يكتف بأن يتابع سير الحركة التجارية في أسواق قراقورم بنفسه، فتشير الرواية المغولية أنه عين جماعة من الموظفين لمتابعة أمور التجارة وأصحاب السوق في قراقورم(١٦٩)

وكان ضمن أسواق مدينة قراقورم سوق للنخاسة او بيع الرقيق وأكدت الرواية المغولية على وجود مثل هذا السوق عندما تشير إلى بيع أحدى الاسيرات الإيرانيات وتسمى فاطمة خاتون فأتوا بها إلى قراقورم حيث بيعت بواسطة الدلالين في سوق النخاسة إلى دلالة التي باعتها بعد ذلك إلى القاآن أوكتاي لتكون ضمن حاشيته وتكون خصيصة بزوجته توراكيناخاتون (١٧٠) كما كانت هذه الأسواق يباع فيها الرقيق من الأحباش والهنود (١٧١).

على أن أهم انجاز حققه أوكتاي قاآن في مجال التجارة والنشاط التجاري داخل قراقورم أنه سمح بحرية التداول بالعملات الأخرى مثل الدينار والدرهم الإسلاميين باعتبارهما عملات دولية متداولة في التجارة جنبا إلى جنب مع العملة المغولية المعروفة باسم البالش وذلك في التعامل التجاري داخل قراقورم وفي

الصفقات التجارية التي كانت تعقد بين التجار والأمراء وعليه القوم داخل قراقورم[١٧٢].

وعلى هذا النحو نجح أوكتاي قاآن في أن يكفلقراقورمل دعامة اقتصادية تتمثل في التجارة والتي أزدهرت في عهده على نحو غير مسبوق وكأنه أراد من هذه الدعامة الاقتصادية أي التجارية تشجيع توافد التجار للمجيء إلى العاصمة من كل حدب وجنوب أن تنافس بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية في هذا المجال.

٢- عناصر السكان وطبقاتهم ودياناتهم في قراقورم:

عندما بدا القآن أوكتاي في تأسيس مدينة قراقورم رأي أنها بحاجة إلى الإسكان والتعمير خاصة وأن معظم المغول من بني جلدته في أقليم منغوليا كانوا منخرطين في سلك الجيوش التي خرجت تحت قيادة باتوبن جوجي وتعدادها حوالي ١٥٠,٠٠٠ جندي، وكانت مكلفة بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوربا الشرقية [١٧٣]. ولما لم يكن من المناسب أن يسكن القآن أوكتاي العاصمة الجديدة ويشيد بها تلك الصروح الضخمة من العمائر المدنية والعسكرية وهي خاوية على عروشها من سكانها، ولما كان المغول لا يعرفون العنصرية في التعامل مع الشعوب المغلوبة أي التعصب لمغوليتهم، فتذكر الرواية السريانية أن القآن أوكتاي بعد بناءه قراقورم "أسكنها خلقا من أهل الخطا وتركستان والفرس والمستعربين[١٧٤]. ولم تلبث مدينة قراقورم أن نمت وأزدهرت في قاآنية أوكتاي وكيوك ومنكو حيث سكنتها عناصر أخرى من الهنود[١٧٥] والأحباش[١٧٦] والآويغور والتبتيين والتنكقوت[١٧٧] بالاضافة إلى سكان من بلاد ما وراء النهر مثل بخارى. [١٧٨] ولا ننسى أن نشير إلى الحرفيين والصناع والبنائين الذين أرسلوا إلى قراقورم من جميع مدن بلاد ما وراء النهر وإيران لكي يسهموا في بناء نهضة قراقورم عمرانيا واقتصاديا. ويبدو أن الارمن كانوا ضمن العناصر التي سكنت قراقورم فيذكر الرحالة الراهب وليم

روبرك أنه كان قد التقى ببلاط منكو قاآن براهب أرمني يدعى سرجيوس Sergius كان يعمل ببلاده نساجا ثم قدم إلى المغول في قراقورم في مسوح راهب واستطاع أن ينال مركزا ممتازا في قراقورم (١٧٩).

ويلاحظ أن كل هذه العناصر السكانية لم تسكن قراقورم بأشخاصها فقط بل حملت معها ثقافاتها وفنها وعلمها وتجارتها ولهجاتها ولغاتها المتعـددة، وساهمت بدور كبير في حضارة مدينة قراقورم في جميع جوانبها. ومنذ تولية أوكتاي عـرش القاآنية فقد حرص على التعامل برقي وتحضر مع العناصر غيـر المغوليـة التـي سكنت قراقورم أو حتى خارج منغوليا، وكذلك فعل منكو قا آن. فلم يمانع منكو قا آن من أن يتخذ من الإيرانيين خواص ومستشارين ومقربين له (١٨٠). كما كانت النسـاء الإيرانيات ضمن حاشية زوجة القاآن أوكتاي المعروفة باسم توراكينا خـاتون(١٨١). والواقع أن القصر الملكي في قراقورم أصبح غاصا بالخدم والعبيد مـن الأحبـاش والهنود على النحو الذي تؤكده الروايات المغولية (١٨٢) كما أتخذ منكوقاآن من هـذه العناصر كتبة الدواوين داخل العاصمة قراقورم فكـان مـنهم الفـرس والأويغـور والخطائيين والتبتيين والتنكوتيين وغير ذلك من الكتاب الـذين يقومـون بمهمـاتهم الكتابية على حسب السنتهم وخطوطهم(١٨٣). وهكذا أصبحت قراقورم غاصة بعناصر من مختلف الأجناس والأهواء والمشارب والذين حملوا على عاتقهم ثقافات وفنـون وعلوم وتجارة ولغات ولهجات بلادهم ووضعوها في قراقورم وأسهموا في النهضة الاقتصادية والعمرانية والإدارية للمدينة بحيث أصبحت قراقورم تعد المدينة الممتازة في أقليم وسط اسيا ومنغوليا.

وتؤكد الروايات المغولية المتاحة لدينا أن عناصر السكان داخل قراقورم قد أنقسموا إلى طبقات فكان هناك طبقة الأغنياء من السادة والغلمان والشرفاء ويبدو أن معظمهم كانوا من المغول والأويغور، وكانت الطبقة الوسطى من التجار، في حين

أن الصناع والحرفيين والبنائين كانوا يكونون طبقة العامة، بجانب الفقراء المعدمة ويطلق عليهم الجويني المساكين (١٨٤) ويبدو أن معظمهم كانوا من الوافدين إلى المدينة من غير المغول.

ولم يعرف حكام المغول ايضا التعصب الديني أو المذهبي فكانوا لا يفرقون بين طائفة وأخرى أو ملة وأخرى ولذلك أصبحت مدينة قراقورم غاصة بمختلف أصحاب الديانات السماوية وغيرالسماوية فكان هناك المسلمون السنة الشيعة وكان معظمهم من الإيرانيين وبلاد ما وراء النهر، (١٨٥) وكان هناك المسيحيين سواء كانوا الكاثوليك أو الأرثوذكس أو النساطرة (١٨٦).

ويلاحظ أن هؤلاء النصارى لعبوا دورا كبيرا في تشجيع المغول على أعتناق المسيحية ويؤكد على وجود النصارى بمذاهبهم المختلفة ما ذكره الراهب القس وليم روبرك في أثناء رحلته إلى بلاد المغول وعند وصوله إلى قراقورم حيث ألتقى في بلاط منكوقاآن بآرمني يدعى سرجيوس كان يعمل ببلاده نساجا ولكنه قدم إلى المغول في مسوح راهب، وأستطاع أن ينال عندهم مركزا ممتازا كما يشير روبرك في روايته إلى الخلاف والخصومات التي كانت بين قسيس نسطوري متعلم يدعى يونس والراهب المغامر الجاهل سرجيوس في قراقورم(١٨٧).

كما كانت هناك عناصر وأجناس من أصحاب الديانات الوثنية كالبوذية والشامانية. ويبدو أن معظم هؤلاء البوذيين والشامانيين كانوا من أهل الخطا والاويغور(١٨٩) وتؤكد رواية لرشيد الدين تشير إلى وجود أعراب وثنيين ممن ينكرون الإسلام والديانات الأخرى ضمن سكان قراقورم، ولم توضح الروايات المتاحة لدينا إذا كان هناك يهود ضمن سكان وديانات قراقورم.(١٩٠) إلا أن بارتولد يذكر أن ميرخواند في كتابه روضة الصفاء يشير لوجود يهود ضمن أصحاب الديانات وسكان مدينة قراقروم (١٩١).

وتوضح الروايات المغولية أن القاآن منكو كان يميل كثيرا إلى المسلمين من أصحاب الديانات في قراقورم، ولذلك اتخذ منهم مستشارين وعين منهم الكثير في المناصب الإدارية في العاصمة قراقورم [١٩٢]. كما عين العديد منهم ضمن كتبه الدواوين بالعاصمة. [١٩٣] وتؤكد الروايات المغولية المتحة لدينا أن المسلمين كانوا يكونون أكثرية أو أغلبية بالنسبة لأصحاب الديانات الأخرى في المدينة [١٩٤].

ولدينا رواية مغولية تؤكد على وجود شيعة من بخارى وسمرقند ضمن المسلمين في قراقورم [١٩٥] وقد اعترف اوكتاي بفضل هؤلاءالمسلمين على المغول ومنع عنهم الأذى حيث قال في أحدى المناسبات " انهم أخوتنا وأصدقاؤنا وقد استمدت مملكتنا القوة منهم وبعونهم أصبح العالم مسخراً لنا وطوع أمرنا. [١٩٦]

ويلاحظ أن سياسة التسامح الديني التي سار عليها القاآن أوكتاي قد تغيرت تماما في قاآنية كيوك (٦٤٤-٦٤٧هـ- /١٢٤٦- ١٢٤٩م) فكان يميل إلى المسيحية والمسيحيين وكان شديد العطف على رعاياه المسيحيين أمثال الآرمني والكرج والروس، فأقبل على رعايه القسيسين والنصارى [١٩٧]، ولما شاع ذلك عنه كان يقصد بلاطه في قراقورم كثير من القسيسين والرهبان من الأطراف والأكناف من ديار الشام وأسيا الصغرى وبغداد وروسيا وأظهر للإسلام والمسلمين ولم يرتفع صوت المسلمين في عهده، وذلك بتأثير أمه من جهة وكانت مسيحية وبتأثير وزيريه المسيحيين قداق وجينقاي من جهة أخرى [١٩٨] كذلك وجد الأطباء المسيحيون الطريق ممهدا أمامهم للأشراف على الشئون الطبية في البلاط المغولي بقراقورم[١٩٩]، وكان من أثرهذه السياسة أن شاعت بعض التقاليد المسيحية في الأوساط المغولية بالعاصمة [٢٠٠]، على أن هذه السياسة قد تغيرت بوفاة كيوك وتولية منكوقاآن، فسار على نفس سياسة أوكتاي في تجرده من التعصب الديني، فكان لا يفرق بين طائفة وأخرى، وعامل المسيحيين والمسلمين والبوذيين والشامانيين على

قدم المساواة، وكفل حرية العبادة للجميع داخل العاصمة قراقورم وخارجها [٢٠١]، وقد أعفى رجال الدين من مختلف الأديان سواء كانوا مسلمين من طائفة من السادات الكريم والمشايخ الكبار والأئمة الأخيار، والنصارى من القسس والرهبان والأحبار والنصارى واللامات المشهورين من البوذيين من كل الضرائب [٢٠٢]، إلا أنه استثنى من ذلك داخل قراقورم وخارجها على حد قول الجويني في جهانكشاي [٢٠٣] وعلى حد قول ميرخواند في روضة الصفاء حاخامات اليهود [٢٠٤] الأمر الذي أثار السخط الشديد بين أفراد هذه الطائفة[٢٠٥] ويذكر المستشرق الروسي الكبير بارتولد أن التسامح الديني الذي سار عليه مانكوقاآن لم يكن يعد له سوى رغبته الشديدة في أن يسير الحكم في منطقة من مناطق الأمبراطورية ومنها قراقورم حاضرة المغول وفقا لأخلاق أهلها وعاداتهم [٢٠٦]. ويبدو أن سياسة التسامح الديني التي سار عليها منكوقاآن داخل العاصمة قراقورم وخارجها كانت بتأثير من والدته سرقويتي بيكي التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً، ومع أنها كانت تدين بالمسيحية إلا أنها سلكت سلوكا حسنا مع الرعايا المسلمين داخل العاصمة قراقورم وخارجها وكانت شديدة العطف عليهم لا سيما الآئمة ومشايخ الإسلام، إذ أغدقت عليهم الكثير من العطايا والهبات على النحو الذي أكدته الروايات المغولية [٢٠٧].

ولا شك أن التعامل الراقي من قبل قاآنات المغول منذ عهد أوكتاي تجاه عناصر سكان العاصمة وكذلك سياسة التسامح الديني الذي عليه قاآنات المغول منذ قاآنية أوكتاي وقاآنية منكو، كان لها أثرها في عدم قيام أية فتن أو اضطرابات أو ثورات يغلب عليها الطابع العنصري أو الديني أو المذهبي داخل العاصمة قراقورم، وحتى بعض الحوادث الفردية القليلة للغاية التي وقعت بين المسلمين من جهة والآويغور والقبجاق الوثنيين والمسيحيين تمكن قاآنات المغول مثل أوكتاي ومنكو من معالجتها بسرعة وحزم شديدين [٢٠٨].

ثالثا: الدور السياسي والحربي لمدينة قراقورم:

إذا كان جنكيزخان أول خان للمغول كان حريصا على أن يخرج بنفسه على رأس الجيوش الخارجة للغزو والفتح في الصين والبلاد الغربية ولهذا قضى معظم سني حكمه خارج قراقورم حاضرة المغول ولهذا السبب لم يوليها العناية الكافية ظلت مدينة تتسم بالبساطة والبدائية، فقد حرص قاآنات المغول من بعده وأولهم أوكتاي ثم كيوك خان ثم منكو على تغيير هذه السياسة وأعطاء الأهمية والمزيد من العناية والأهتمام بالحاضرة المغولية، وحرصوا على أن يقضوا معظم سنوات حكمهم داخل العاصمة المغولية للقيام بعمليات التعمير والتشييد وأظهار أنفسهم بمظهر الحكام المتحضرين مقارنة بأبيهم جنكيزخان، ومن أجل ذلك بدأوا يحيطون أنفسهم بمظهر الأبهة والترف والعظمة داخل العاصمة قراقورم متشبهين في ذلك بأباطرة الصين وسلاطين المسلمين في البلاد التي غزوها وحتى في البلاد التي لم يغزوها، وأتخذوا من أجل ذلك الوزراء والمستشارين والخدم والأتباع والحجاب، وحرصوا على أن يرسلوا جيوشهم للغزو والفتح وعلى راسها قادة أكفاء بدلا من الخروج بأنفسهم، وكانوا حريصين على أعطاء الأهمية والقيمة السياسية لمدينة قراقورم بوجودهم الدائم فيها وتفقد أحوال الرعية بها وأقامة كافة النظم الإدارية والدواوين داخل المدينة وحرصهم على استقبال سفراء الدول التي لم تكن قد خضعت لهم وكانت تخطب ودهم وتطلب الدخول في طاعتهم، في مدينة قراقورم (٢٠٩).

ولإظهار الأهمية السياسية للحاضرة المغولية ولتأكيد ذلك حرص المغول، عقب وفاة كل خان مغولي، أن يتم عقد القوريلتاي أي الجمعية التشريعية المغولية، إذا ما صح هذا التعبير اوالاجتماع العام للمغول، والذي يتم فيه اختيار أو انتخاب حاكم جديد على أمبراطورية المغول في مدينة قراقورم، وأصبح هذا تقليداً حرص عليه كل المغول وعضوا عليه بالنواجذ، منذ وفاة جنكيزخان حتى عهد قوبيلاي

قاآن، حيث يلتقي فيه كافة الأمراء من أسرة جنكيزخان يأتون إلية من كافة أرجـاء الأمبراطورية ومختلف أقاليمها، كل كبير أسرة من أسر هذا الخان، على رأس وفـد بني أبيه، وأن يسارع إلى الحضور إلى قراقورم الحاضرة، مهما بعدت، الـشقة أو صعبت المسالك أو سدت الطرق بعوائق، مثل نزول الثلج أو الأمطار، بل على كـل أمرئ، أن يكابد السفر ويصارع الأخطار ويركب الأهوال، في شكل متواصل السير ليلع بنهاره حتى يصل إلى مكان القوريلتاي في الحاضرة المغولية، وأن من يتخلـف عن حضوره تكون عقوبته الموت قتلا، وقد حدث هذا في قوريلتاي أوكتاي وكيـوك ومنكوقاآن (٢١٠).

ويبدو أن هدف المغول من ذلك إظهار مركزية الحكـم فـي امبراطوريـة المغول وألا ينسى بقية أفراد الأسرة المالكة خارج منغوليا، موطن الآباء والأجداد.

وكانت قراقورم بمثابة منفي سياسي لحكام وأفراد الأسرة الحاكمة للممالـك التي سقطت بأيدي المغول أمثال والده السلطان الخوارزمي عـلاء الـدين محمـد خوارزم شاة المسماة تركان خاتون حيث أسرت وأرسلت إلى قراقورم (٢١١) حيـث ماتت هناك سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م (٢١٢). كما كانت قراقورم منفى لـركن الـدين خورشاة آخر زعيم لجماعة الإسماعيلية الحشيشية بعد تدمير قلاعهم علـى أيـدي هولاكو الأخ الأصغر للقاآن منكو، حيث تم أرساله إلى قراقورم بعد استسلامه أثناء قاآنية منكو حيث تم اعدامه هناك (٢١٣).

كما حرص قاآنات المغول بعد جنكيزخان على اظهار الأهميـة العـسكرية للحاضرة المغولية قراقورم وذلك عند أعداد الجيوش الضخمة الخارجـة لاسـتكمال غزو البلاد الغربية وشرق أوربا وأن تكون نقطة انطلاق هذه الجيوش من العاصمة قراقورم وقد حدث هذا في الحملة الضخمة التي أعدها منكوقآن ووضع عليها أخيـه الأصغر هولاكو عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م من أجل غزو البلاد الغربية أي تدمير قلاع

وحصون الإسماعيلية الحشيشية في إيران واستئصال شأفة الأكراد واللر، ثم القضاء على الخليفة العباسي في بغداد ثم مواصلة السير حتى حدود الأراضـــي المـصرية غربا وكانت نقطة انطلاق هذه الحملة الضخمة قد بدأ من قراقورم حيث تم الأعـداد لها ووضع خططها العسكرية في قراقورم ثم خرج القآن منكو بنفسه ليودعها قبـل انطلاقها نحو الغرب على النحو الذي أكدته الروايات المغولية (٢١٤).

وكانت قراقورم طرفا رئيسيا في الصراع الأسري أو الحروب الأهلية التي نشبت بين أفراد البيت المغولي الحاكم حول عرش القآنية بعد وفاة منكو قآن عـام ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م. وكان النزاع في هذه المرة بين أبناء تولوي: بين الأبن الأكبـر قوبيلاي الذي كان على رأس الجيوش المغولية في الصين، والأبن الأصـغر أريـق بوكا، فعندما أرسل منكوقا آن جيوش المغول بقيادة أخيه الأصغر هولاكـو لغـزو البلاد الغربية وولايات التازيك، وأخيه الأكبر قوبيلاي لإستكمال غزو بلاد الـصين، ثم خرج بعد ذلك لتقديم الدعم لقوبيلاي في غزوه للصين،(٢١٥)

وتشير الروايات السريانية المسيحية والإسلامية أن منكو قآن قبل خروجـه إلى بلاد الخطا أناب عنه في الحكم في قراقورم أخوه ويسمى أريق بوكا، وكان يود أن يخلفه هذا الأخ على عرش المغول (٢١٦). ويؤكد ابن العبري على أحقيـة أريـق بوكا بالعرش بعد ذلك، عندما يشير إلى أن منكوقآن قد جعل أريق بوكا نائبا له في قراقورم حين عودته لأنه الأولى أن يكون موضع أخيه بمقتضى الياسا التى لهم(٢١٦). فلما مات منكو قآن عام ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م أعلن أريق بوكا نفسه خاناً أعظم فـى قراقورم ووجد التأييد فى ذلك من كبار رجال الدولة وأغلب أفراد الأسرة الحاكمة فى قراقورم (٢١٧). ولدينا رواية تشير إلى انضمام أغلب سكان العاصمة قراقـورم مـن مسلمين ونصاري وبوذيين وشامانيين إلى أريق بوكا واعترافهم بقآنيته (٢١٨).

على أن قوبيلاي الذى كان قد تشبع بروح الصينيين وأتصل بهم اتصالاً وثيقاً وضمن وقوف الجيوش الصينية إلى جانبه رفض النزول على قرار أخيه وأعلن عدم اعترافه بقاآنية أريق بوكا وأستعد للدفاع عن أدعائه بالسيف. وفى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩ – ١٢٦٠م عقد قوريلتاياً خاصاً فى مدينة كي مينك فو إحدى مدن الصين الشمالية، وأعلن خلع أخيه أريق بوكا، ونصب نفسه إمبراطوراً على المغول، وكان فى ذلك الوقت فى السادسة والأربعين من عمره (٢١٩)، وأتخذ من بكين عاصمة له وأطلق عليها اسم خان باليغ أى مقر الخان (٢٢٠).

وهكذا ولأول مرة فى تاريخ تأسيس إمبراطورية المغول منذ عهد جنكيز خان يتم اختيار قاآنين فى وقت واحد هما: قوبيلاى بالصين، وأريق بوكا بقراقورم فى عام ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م، وانقسمت الإمبراطورية المغولية بذلك إلى قسمين: قسم فى الصين وعاصمته بكين وقسم فى منغوليا وعاصمته قراقورم، مما هدد تهديداً كبيراً وحدة وتماسك إمبراطورية المغول، ولذلك يذكر شبولر أن موت منكو قاآن قد سبب خلافات عميقة وخطيرة أثرت على وحدة الإمبراطورية المغولية (٢٢١).

ولكن لم يكن من السهل على كبار المغول أن يقروا هذا التصرف من قبل قوبيلاي لأنهم لم يحضروا هذا القوريلتاى ولأن قوبيلاي بذلك خرج على تقاليد المغول إذا أعلن نفسه خليفة لأباطرة الصين السابقين، وما ذلك إلا إنه كان متأثراً إلى حد كبير بحضارة الصينيين فصار مروجا لتلك الحضارة، فكان هذا إيذانا بالتخلي عن قوانين جنكيز خان الشديدة القاسية (٢٢٢). ورغم أن الرواية المغولية تشير إلى أن هولاكو وبركة خان أقوى شخصين فى بيت جنكيز خان، قد اعترفا بقاآنية قوبيلاي وأيده فى صراعه المقبل مع أريق بوكا (٢٢٣)، ورغم أن رواية النويرى تشير إلى تأييد بركة بن باتوخان مغول القبجاق جنوب روسيا قد أيد أريق بوكا فى صراعة مع قوبيلاي (٢٢٤)، إلا أن المستشرق الروسي الكبير بارتولد ينفي

هاتين الروايتين حول موقف كل من هولاكو وبركة خان، حيث يذكر أن كل من هولاكو وبركة خان لم يشتركا فى هذا النزاع، وإن كان أريق بوكا قد أشاع بأنهم يؤيدانه (٢٢٥).

وكان على قوبيلاي أن يخضع هؤلا المناوئين لسياسته، والذين نادوا بأريق بوكا خاناً عليهم، فلم يتردد فى الإقدام على هذه الخطوة، ووضع نصب عينيه أن يحارب أخاه وينتزع منه عاصمة المغول التقليدية قراقورم. وهكذا بدأ الصراع المرير بين الأخوة المغول الأعداء، ويذكر ابن العبري أن الصراع بين قوبيلاى وأريق بوكا استمر سبعة عشر عاماً (٢٢٦)، ويعارض ذلك الرواية المغولية التى تذكر أن الصراع بين الأخوة الأعداء استمر ما يقرب من ست سنوات (٢٢٧)، وهى الرواية الأصح فى نظرنا.

وبدون الدخول فى تفاصيل عقيمة تخص الصراع والحروب بين الأخوة الأعداء خشية أن يطول البحث عما هو مقدر له خاصة وأن المصادر المغولية والعربية قد حفلت بتفاصيل ضافية حول ذلك (٢٢٨). ففي أحدي مراحل الصراع والحروب بين الأخوة الأعداء ضربت جيوش قوبيلاي الحصار حول مدينة قراقورم ومنعت وصول المؤون والميرة من الصين إلى العاصمة قراقورم فحدثت من جراء ذلك مجاعة شديدة بالعاصمة، فكان من الضروري أن ينظم نقل الغلة والأطعمة الأخرى التى تحتاجها العاصمة من تركستان إلى منغوليا (٢٢٩)، وعبرت الرواية المغولية عن ذلك بقولها " وكانت العادة المتبعة أن المأكولات والمشروبات اللازمة لمدينة قراقورم تجلب بالعربات من الخطا، فمنع قوبيلاي قاآن ذلك، فظهر هناك قحط وغلاء شديدان (٢٣٠). ويؤكد المستشرق الألماني شبولر على ذلك عندما يذكر أن الحرب الأهلية التى نشبت بين أفراد البيت المغولي الحاكم كانت نتيجتها انقطاع

منغوليا عن العالم الخارجي وتعرضها لهزات اقتصادية عنيفة خاصة مدينة قراقورم (٢٣١).

وتشير الرواية المغولية إلى انضمام معظم سكان العاصمة من مسلمين وبوذيين وشامانيين إلى أريق بوكا في صراعه وحروبه مع قوبيلاي (٢٣١م)، ويؤكد ذلك على مدى أهمية هذه العناصر ودورها الفعال بالنسبة لأريق بوكا فى صراعه مع أخيه قوبيلاي، والإسهام السياسي والعسكري والمعنوي لسكان قراقورم من مغول وغير مغول فى الصراع الأسري الدائر بين حفدة جنكيز خان. وتم لقوبيلاي ما أراد فى النهاية واستطاع الانتصار على أخيه أريق بوكا فى النهاية وأسرة عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣- ١٢٦٤م (٢٣٢)، ثم زج به فى السجن إلى أن مات فى عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م (٢٣٣). وبذلك خلصت لقوبيلاى العاصمة قراقورم ليصبح هو الخان الأعظم والأوحد للمغول فى الصين ومنغوليا وبقية أقاليم الإمبراطورية المغولية.

ويتحدث المستشرق الألماني الكبير شبولر عن أثر الحرب الأهلية بين الأخوة المغول الأعداء على العلاقة بين أفراد الأسرة المغولية الحاكمة وعلى بقية أجزاء الإمبراطورية المغولية والعلاقة بين الحكام المغول لهذه الأقاليم فيذكر أن الحرب الأهلية لعام ١٢٥٩هـ / ٦٥٨هـ سببت تأثيرات سريعة على الأجزاء الغربية من الإمبراطورية المغولية العتيدة فالنزاع بين الأخوين قوبيلاى وبوكا كان له نظير فى النزاع بين هولاكو وبركة خان القبائل المغولية الذهبية، وذلك أنه بعد موت باتو عام ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م ومرور فترة قصيرة، أصبح بركة عاهلاً لإمبراطورية مغولية فى جنوب روسيا، وكان أول حاكم مغولي يعتنق الإسلام، ربما قبل اعتلائه العرش ولهذا السبب لم يوافق على الحملة التى أرسلت ضد الخليفة العباسي فى بغداد، وحاول أن يتوسط فى الأمر، ولكنه لم يستطيع منع الفرقة التى أرسلها من جيشه للاشتراك فى معية جيش هولاكو فى اسقاط بغداد ونهبها مما أشعره بالحقد والمرارة

خاصة عندما جعل منكوقاآن من بلادة القوقاز وما جاورها، وهى أصلاً تابعة لقبائل المغول الذهبية، من نصيب هولاكو، وهكذا بدأ بركة بتعميق الحقد والكراهية ضد جارة الجنوبي، ونتيجة لذلك وقف بجانب أريق بوقا بينما دعم هولاكو قوبيلاي (٢٣٤).

ويلاحظ أن الرواية المغولية التى تناولت تفاصيل الحرب الأهلية بين الأخوين قوبيلاي وبوكاً، لم توضح إذا كانت مدينة قراقورم قد تأثرت من جراء حصار قوبيلاي لها أو أن هناك دماراً لحق بسور المدينة أو بالقصور التى شيدها أوكتاى. والمؤكد فيه أن أسوار ومباني المدينة لم تتأثر بالحرب الأهلية بين الأخوين قوبيلاي وأريق بوكا، وتؤكد على ذلك الرواية الإيطالية للرحالة البندقي ماركو بولو الذى زار منغوليا بعد هذه الأحداث مباشرة وشاهد قراقورم ومبانيها وأسوارها فيذكر أن المدينة يحيط بها استحكام حصين من الثرى نظراً لقلة وجود الحجر بتلك المنطقة، وإلى خارج ذلك الاستحكام، وعلى كثب منه تقف قلعة ضخمة، فيها قصر جميل يشغله حاكم المكان (٢٣٥). ويرجح أن سور قراقورم أو مبانيها لو كانت قد تعرضت للدمار من جراء تلك الحروب فلربما سارع الرحالة البندقي إلى ذكر ذلك ضمن مشاهداته وأوراقه.

وتوحي رواية رشيد الدين أن قوبيلاى لم يمكث فى العاصمة قراقورم سوى سنوات قليلة للغاية أقر فيها الأوضاع داخل العاصمة ثم خرج بعد ذلك لاستكمال فتوحاته فى الصين الجنوبية. وأستمر نحو عشرين سنة فى هذه الفتوحات حتى تم له الاستيلاء على هذه الأقاليم نهائياً عام ٦٧٨هـ / ١٢٨٨م (٢٣٦). ولم توضح الرواية المغولية منذ متى قرر قوبيلاي أن يترك العاصمة قراقورم وينتقل نهائياً إلى بكين ويجعلها هى العاصمة الجديدة والمقر الرئيسي للقاآنية بدلاً من قراقورم. وتذكر الباحثة البريطانية هيلدا هوخام أن قوبيلاي قد أنتقل إلى بكين وجعلها عاصمة له بدلاً من قراقورم عام ٦٦٩هـ / ١٢٧١م عندما أعلن نفسه إمبراطوراً هناك فى الصين

وأسس أسرة يوان (يونان) الحاكمة، ولكي تخضع الصين بأكملها لأول مـــرة لحكـــم البرابرة القادمين من وراء السور العظيم (٢٣٧).

والمؤكد فيه أنه منذ خروج قوبيلاي من قراقورم، واتخاذ بكين عاصمة لـــه ومقر الحكم الرئيسي لإمبراطورية المغول، لن تعود العاصمة أبـــداً إلـــى قراقـــورم وبدأت تتقلص أهمية منغوليا والعاصمة قراقورم من الناحية الـــسياسية والعـــسكرية لتصبح مجرد ولاية أو أمارة تابعة لقاآنية المغول فى الصين يحكمها أمير من الأسرة الحاكمة المغولية يعين من قبل القآن قوبيلاي فى الصين، ويؤكد على ذلك ما قالـــه شبولر الذى يذكر أن الصراع الأسري الذى أنتهي بانتصار قوبيلاى على أريق بوكا وما ترتب عليه من انتقال العاصمة من منغوليا إلى الصين أصبحت منغوليـــا بـــذلك مجرد إمارة أو ولاية خارج بلاد الصين ولا تتدخل بشؤون الـــصين بـــل بـــالعكس أصبحت مصدر قوة وتأييد معنوى للأسرة المغولية الحاكمة فى الصين وهى أســـرة يونان (يقصد أسرة يوان). ولكن منغوليا وعاصمتها قراقورم لم تعد لها أية أهميـــة بارزة فى تاريخ العالم فأصبحت السفارات الأجنبية من أجزاء آسيا الأخرى، بما فيها بعض الممتلكات المغولية السابقة، تذهب إلى بكين مباشرة، وأصبحت أساليب حيـــاة الخان العظيم وبلاطه صينية، كما انتقلت سيدات البيت المالك المغولي من مقرهن فى قراقورم إلى مقرهن الجديد فى بكين (٢٣٨). ونحن نتفق مع رأي شبولر تماماً. ويؤكد على هذا الرأي بأن منغوليا وعاصمتها قراقورم أصبحت مجرد ولاية أو إمارة تابعة لإمبراطورية المغول فى الصين، ما أكدته الرواية المغولية وأشارت إليه أنـــه بعـــد تولية تيمور قاآن حفيد قوبيلاى على عرش القاآنية فى الـــصين عـــام ٦٩٣هـــــ / ١٢٩٤م عين أخاه الأكبر كملا، بعد وفاة قوبيلاى، أميراً على مقاطعة قراقورم التى هى عبارة عن مناطق جنكيز خان ومعسكراته، وجعل الجنود فى تلك الجهات تحت إمرته، لكي يحكم بذلك كل ولايات قراقورم وجيناس وشيناوجي وأونن وكلـــوران،

وبقية ديار جنكيز خان الكبري فى منغوليا [٢٣٩]. وهكذا أكدت الرواية المغوليـة أن منغوليا وعاصمتها قراقورم تحولت إلى ولاية تابعة لقآن المغول فى الصين.

ويبدو أن قراقورم لم تسلم أيضا من الحرب الأهلية التى نشبت فيما بعد أثناء قآنية تيمور حفيد قوبيلاي بينه وبين كل من قايدو حفيد أوكتاى الذى أسـس دولـة مستقلة بآسيا الوسطي وبالتحديد غرب منغوليا، وتحالف معه أحد أحفاد جغتاى الذى كان يعرف بدوا بن براق والذى كانت ممتلكاته تقع بجوار ممتلكـات قايـدو حفيـد أوكتاى وبالتحديد فى المنطقة الممتدة بين نهر جيحـون ومنغوليـا، لكـي تـصبح ممتلكاتهما متاخمة لأملاك القآن الأعظم فى الصين، ولهذا طمع كـل مـن قايـدو ومنضماً إلى دوا فى ممتلكات القآن الأعظم وكان من ضمنها منغوليـا والعاصـمة القديمة قراقورم لتبدأ الحرب الأهلية الثانية بين أبناء العمومـة. ويـرجح أن هـذه الحروب قد وقعت فى السنوات الأولى من القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي). ويبدوا أن هذه الحروب قد انتقلت فى مرحلة من المراحل إلـى منغوليـا وإلى حاضرة المغول القديمة قراقورم عندما تمكن أحد القادة ويسمي أولـوس بوقـا (بوقا بالمغولية معناها الثور ويلقب به أفراد الأسرة المغولية الحاكمة) الـذى خـرج على طاعة كل من قايدو ودوا بن براق، ورأى أن يعمل لحسابه ضد القآن تيمـور حفيد قوبيلاي، فأغار على قراقورم محاولاً الاستيلاء عليها، وقام جيـشه باقتحـام المدينة ونهب الأسواق والمخازن بها [٢٤٠]. ويرجح، طبقاً لهذا النص، أن المدينة قد تعرضت لنوع من التخريب والتدمير على أيدي أولوس بوقا هذا، ويؤكد على ذلـك برتولد شبولر عندما يذكر أنه فى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر المـيلادي (أوائل القرن الثامن الهجري) طغت على منطقة ما وراء النهر حروب أهلية هزتها بعنف، فيما عدا فترة قصيرة حاول فيها خانات تركستان إقامة السلم والهدنـة فيما بينهم على أساس التراضي بين جميع دويلات المغول، إلا إنه أثناء هذه الاضطرابات

استطاع أحفاد جغتاى استعادة سلطتهم على ما وراء النهر وتركستان، وأن يطردوا فعلاً أحفاد أوكتاى من المسرح السياسي نهائياً بحيث ساد السلام فى آسيا الوسطي (أو غرب منغوليا بالتحديد) عام ١٣٠٩م / ٧٠٩هـ. ولكن الأضرار الفادحة التى سببها القتال المستمر، جعلت كثيراً من المدن تخلو نهائياً من سكانها، ولم يبق منها سوى الأطلال والخرائب لتشهد بعظمة تلك المدن الغابرة (٢٤١).

ولا تسعفنا المصادر المتاحة لدينا بروايات توضح كيف سارت الأمور بالنسبة للعاصمة قراقورم بعد انتهاء الحروب الأهلية بين مغول آسيا الوسطي (غرب منغوليا) من أحفاد أوكتاى وأحفاد جغتاى، وتيمور قاآن المغول فى الصين وحفيد قوبيلاي، ويرجح أنه بمرور الوقت بدأت الأهمية السياسية والعسكرية والاقتصادية لمدينة قراقورم تذوى وتتلاشي بعد أن تحولت إلى مجرد ولاية تابعة لقاآن المغول فى الصين، وتعرضت للدمار والتخريب أكثر من مرة خلال الحروب الأهلية بين أفراد أسرة جنكيز خان. وتذكر الباحثة البريطانية هيلدا هوخام أنه بعد سقوط أسرة يوان المغولية التى أسسها قوبيلاي فى الصين، عام ١٣٦٨م / ٧٧٠هـ على أيدي أسرة المنج (١٣٦٨-١٦٤٤م / ٧٧٠-١٠٥٤هـ) حيث تم طرد آخر أباطرة أو حكام المغول فى الصين، وفر إمبراطور المغول من بكين إلى مقره الصيفي فى شانجتو التى سقطت هى الأخرى، وقد تمكن هذا الإمبراطور المغولي فيما بعد من الفرار مع زوجته ومحظياته تحت جنح الظلام إلى قاراقورم عاصمة المغول التى حل بها الفساد والانحلال منذ ذلك الحين (٢٤٢)، كما انسحب معظم المغول أيضاً إلى موطنهم الأصلي فى السهول فى منغوليا حيث عادوا إلى حروبهم القديمة ومنازعاتهم القبلية فيما بينهم، وكانوا لا يزالون أقوياء بما يكفي لشن حملات ضد أسرة المنج الصينية، فلم يكن أمام أباطرة المنج سوى تجريد عدة حملات لتأديب المغول فى منغوليا نفسها، وفى إحدى المرات وصلت جيوش المنج إلى قراقورم فأتوا بنيانها من

القواعد [٢٤٣]، ودمروها تماماً وعفي أثرها بحيث صارت تنعي من بناهـا. ويـذكر المستشرق البريطاني مورجان أن بقايا مدينة قراقورم التى دمرت على أيدى جيوش المنج الصينية قد نهبت على نطاق واسع خلال القرن السادس عشر (القرن العاشـر الهجري) واستخدمت بقايا أطلال المباني المتبقية منها لبناء معبد بوذي أقيم بـالقرب منها وهو ما زال قائماً حتى الآن [٢٤٤].

وفى الختام أرجو أن أكون من خلال هذا البحث المتواضع قد وفقت فى إلقاء بعض الأضواء على موضوع لم تتناوله الدراسات المغوليـة الحديثـة للمـؤرخين المحدثين العرب أو الأوربيين الذين تناولوا تاريخ المغول وتأسيس إمبراطوريتهم منذ عهد جنكيز خان، وضرب عنه المؤرخين صفحاً بـسبب شـحاحة المعلومـات أو الروايات الخاصة بمدينة قراقورم التى اعتبروا أن تناول هذه المدينة يعتبر مغـامرة محفوفة بالمخاطر. ولا داعي أنني قد أحطت بالموضوع من كل جوانبه أو أنني قـد وفيته حقه بالكامل أو أدعي أنني تغلبت على المشاكل التى واجهتني أثناء جمع مادته التاريخية. وربما أكون قد قصرت فى تناول العديد من الجوانب فيه بـسبب نـدرة وشحاحة المادة التاريخية فى الجانبين السياسي والحضاري لعاصمة المغول، إلا إنني أرجو أن أكون قد تمكنت من توضيح التاريخ السياسي والحضارة لمدينة قراقـورم حسب اجتهادنا الشخصي، وما أمكننا استنتاجه أو استقصاءه أو التوصل إليـه مـن حقائق استناداً إلى المصادر القليلة للغاية المتاحة لدينا فى موضوع من الموضوعات الهامة فى تاريخ إقليم منغوليا وآسيا الوسطي فى العـصور الوسـطي أو العـصور الإسلامية، وأن يعكس هذا البحث أحدي نواحي دراسة حضارة أحدى مدن منغوليا أو آسيا الوسطي خلال عصر السيطرة المغولية، وأكون بذلك قد فتحت المجـال أمـام دراسات أخري نقدية بناءة تساعدنا فى تكوين قاعدة ودراسات أفضل من هذه التـى أتينا بها وهى جهد المقل.

حواشى الدراسة

١- Pelliot, p., Notes on Marco – polo travel's, 3 vols, paris 1959 – 1973, vol. I.

٢- Howorth, History of the Mongols, vol. I – IV, London 1927.

٣- D'ohsson, Histoire des Mongols depuis tchinguiz khan jusqu'a timour Bey, vol. I – IV, Amesterdam 1852.

٤- بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقلـه عـن الروسـية صلاح الدين عثمان مصطفى، الكويت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، د. أحمد السعيد سليمان، ط. القاهرة.

٥- شبولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى، نقله إلى العربيـة خالـد أسـعد عيسى، ط. دار حسان دمشق ١٩٨١م.

٦- د. فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

٧- د. السيد الباز العرينى: المغول، ط. بيروت ١٩٨١م.

٨- Morgan, The Mongols, oxford 1986, p. 114.

٩- Morgan, The Mongols, p. 114.

١٠- موضعها الآن يحدده معبد بوذى أقيم بجوارها يسمى أردنى – تسو على بعـد حوالى ٣٦٠ كم جنوب غرب أورجا فى منغوليا الداخلية. د. حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢١٠.

١١- Morgan, the Mongols, p. 114.

١٢- الجوينى: جهانكشاى، نقله من الفارسية إلى العربية د. محمـد التـونجى، ط. دمشق ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

١٣- ماركوبولو: رحلات ماركو، نقله إلى الانجليزية وليم مارسدن ثـم نقلـه إلـى العربية عبد العزيز جاويد، ضمن سلسلة ينابيع، القاهرة ١٩٧٦ م، ص ٩٨.

١٤- William Rubruck, The Journey of William Rubruck to the Easter part of the World, ed. By Dawson entitled " The Mongol mission, " London & New York 1955, pp. 183 – 184.

١٥- Morgan, The Mongols, p. 114.

١٦- الجوينى: جهانكشاى، مجلد١ ص ٨٠.

١٧- الجوينى: جهانكشاى، مجلد١ ص ٢١٨.

١٨- الجوينى: جهانكشاى، مجلد١ ص ٨٠ – ٨١. الأوردو بالتركية هى المعـسكر والمخيم، وعربت إلى أوردى وعرضى، وعندما تأتى مطلقه فى صدر تـاريخ المغول فإنما يقصد بها فى الغالب قراقورم ولكن إذا جاءت مقترنة باسم أحـد الخانات فالمقصود بها عاصمة دولته. بارتولد: تركـستان، ص ٦٥٥ حاشـية ٢١.

١٩- الجوينى: جهانكشاى، مجلد١ ص ٨٠.

٢٠- بويل: تاريخ فاتح العالم للجـوينى، بالانجليزيـة كمـا ورد فـى الجـوينى: جهانكشاى، مجلد١ ص ٣٣٩.

٢١- ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، نشر الأب انطون صالحانى، ط. بيـروت ١٩٩١، ص ٢٤٨.

٢٢- الجوينى: جهانكشاى، مجلد١ ص ٨٠، ٢١٨.

٢٣- رشيد الدين: جامع التواريخ، نقله إلى العربية د. فؤاد الـصياد، ط. بيـروت (بدون تاريخ)، ص٦٠.

٢٤-رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩.

٢٥-الجوينى: جهانكشاى، مجلد١ ص ٨٠، ٢١٨؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩ – ٦٠؛ ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٨.

٢٦-بارتولد: تركستان، ص ٥٩٠، ٦٥٠، ٦٥٥، ٦٥٧ وصفحات أخرى؛ كذلك:

Morgan, The Mongols, p. 114.

٢٧-شبولر: العالم الإسلامى، ص ٤٣، ٤٩؛ الجنكزية، مقال بدائرة المعارف الاسلامية، الترجمة العربية، ط. دار الشعب، مجلد١٢ ص ٣٩٨؛ ايضاً حافظ حمدى، مقدمته لكتاب النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص ١١؛ الدولة الخوارزمية والمغول، ط. دار الفكر العربى ١٩٤٩م، ص ١٢٦؛ إدوارد براون: تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى نقله إلى العربية د. ابراهيم أمين الشواربى، ط. مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤م، ص ٥٨٣.

٢٨-ابن بطوطه: رحلة ابن بطوطه المسماه تحفه النظار فى غرائب الأمصار، شرحه وكتبه هوامشه طلال حرب، ط. بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م، ص ٦٤٤ – ٦٤٥.

٢٩-ماركوبول: رحلاته، ص ٩٨.

٣٠-وليم مارسدن فى شروحاته وتعليقاته على رحلات ماركوبول، ص ٩٨ حاشية١

٣١-وليم مارسدن فى شروحاته وتعليقاته على رحلات ماركوبول، ص ٩٨ حاشية١.

٣٢- بارتولد: تركستان، ص ٥٩٠.

٣٣- برتولد: تركستان، ص ٥٩٠ – ٥٩١. وبالرجوع إلى نص الجوينى المترجم بالعربية لم نجد ذكر لهذا الموضع الذى ذكره بارتولد.

٣٤- الجوينى: جهانكشاى، مجلد١ ص ٦١؛ أيضاً د. سعد الغامدى: سقوط الدولة العباسية، ط. الرياض ١٩٨٣م، ص ٧٦؛ المجتمع المغولى: ضوابطه وقوانينه، ط. الرياض، ص٢٨، كذلك

Ayalon, D., The great yasa of Jenghis khan, studia Islamica 1971, vol. 33, pp 97 – 140, vol. 34, pp. 151 – 180, A.& B.

٣٥- Pelliot, Notes, vol. I, pp. 165 – 169 ; Morgan, the Mongols, p. 114.

٣٦- Morgan, The Mongols, p. 114.

٣٧- Morgan, The Mongols, p. 114.

٣٨- الجوينى: جهانكشاى، مجلد١ ص ٦٠.

٣٩- D'ohsson, Histoire des Mongols, To. I, pp. 236 – 239.

٤٠- يذكر الرحالة الصينى تشأن تشؤن عند زيارته لمدينة سمرقند بعد احتلالها من المغول أن المدينة لم يكن يقيم بها أكثر من ربع سكانها الذين كانوا بها فيما مضى وعددهم مائة ألف أسرة راجع:

Bretschneider, Chinese Mediaeval travelers to the west. Si Yu ki C Cha 'ng ch'un (1220 – 1221), vol. I, pp. 35 – 78.

٤١-

٤٢- Cahun, M.L., Gengis – Khan et L'empire Mongol, p. 944 (Lavisse et Rambaud: Histoire générale, To II.

٤٣- فلاديميرستوف: حياة جنكيزخان الإدارية والسياسية والعسكرية، نقله من الروسية إلى الانجليزية د.س.ميرسكى، ونقله إلى العربية د. سعد الغامدى، الرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م؛ ص ٢٠٧. كان جنكيزخان فى احدى المرات، وهو خارج بحثاً عن الصيد على أرض ذلك الجبل، جذب انتباهه شجرة كانت تقف وحيدة هناك، فأحبها وظل جالساً تحت ظل أوراقها الوارفة لفترة من الوقت مستغرقاً فى حلم يقظه بهيج، وقال مخاطباً الحضور معه إن هذا المكان هو اللائق لأن يكون مكاناً لمثاوى الأخير، فليكن ذلك معلوماً لديكم. فلاديميرستوف: حياة جنكيزخان، ص٢٠٧. معتمداً على النسخة الفارسية لكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين.

٤٤- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٨- ٣٠، الجويني: جهانكشاي مجلد ص ١٧٤- ١٧٧. ويذكر بارتولد أن أوكتاي الابن الثالث لجنكيزخان كان الوحيد من أبناءه الذي كان يتمتع بصفات حميدة ودماثة في الخلق يستطيع بها أن يجمع حوله أفراد البيت المالك وبقية سكان الدولة، ويجعل من نفسه هدفاً لمحبتهم وتفانيهم في الإخلاص له، فهو لم يكن متشدداً في تنفيذ الياسا. وقد أكبر جنكيزخان الصفات الحميدة التي تحلى بها أوكتاي فوقع عليه اختياره ليكون خليفة له في الحكم مفضلاً إياه على تولوي ذي المواهب العسكرية وعلى جغتاي الذي عرف بصرامته في تطبيق الياسا. بارتولد: تركستان، ص ٦٥٠، د. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص ١١١، د. سعد الغامدي: سقوط الدولة العباسية، ص ١٤٤- ١٤٥.

٤٥- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩، الجويني: جهانكشاي، مجلد ١ ص ٢١٨.

٤٦- الجوزجاني: طبقات ناصري، ص ٣٨٢ وما بعدها، وأكد على ذلك أيضاً رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩ .

٤٧- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٨.

٤٨- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٤، ١٩٨- ١٩٩.

٤٩- د. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٢١- ١٢٢.

٥٠ - رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩ .

٥١- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩.

٥٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٨ -٢١٩، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩ .

٥٣- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٨.

٥٤- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٨، ومن المهم جداً أن نذكر أننا سنضطر إلى تكرار هذا النص في أكثر من موضع لأن طبيعة الدراسة تحتم علينا ذلك.

٥٥- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٨.

٥٦- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٨.

٥٧- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٨، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٨.

٥٨- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٨٠، ٢١٨، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩ .

٥٩-هيلدا هوخام: تاريخ الصين، ترجمة محمد أشرف كيلاني، المجلـــس الأعلـــى للثقافة، القاهرة، ص ٢٣٠.

٦٠- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

٦١- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٨.

٦٢- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩ .

٦٣- برتولد: تركستان، ص٦٥٥ حاشية ٢١.

٦٤- Morgan,the mongols.p.114

٦٤م- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

٦٥-ماركوبولو: رحلاته، ص٩٨.

٦٦- د. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٢٢-١٢٣.

٦٧- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٨.

٦٨- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٧ سطور ١٨-١٩.

٦٨م- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٩.

٦٩- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٩، رشيد الدين: جامع التـــواريخ، ص ٥٩ -٦٠.

٧٠- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٩.

٧١- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٩ .

٧٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٩.

٧٣- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

٧٤- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

٧٥- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

٧٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

٧٧- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

٧٨- ماركوبولو: رحلاته، ص٩٨.

٧٩- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٩.

٨٠- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٥٩، ٦١، الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٩.

٨١- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٩ -٢٢٠.

٨٢- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١.

٨٣- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

٨٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٢٠ -٢٢١.

٨٥- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٢١.

٨٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١.

٨٧- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١.

٨٨- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١.

٨٩- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١.

٨٩م- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٨، ٢٢٠. وتزغو باليغ معناها مدينة تزغو.

٩٠- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١.

٩١- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١.

٩٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١١.

٩٣- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١، الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص٢١٠-٢١١.

٩٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٣، ٢١٠، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٧- ٨٨.

٩٥- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١، الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٠، ٢١١.

٩٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٧.

٩٧- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦١- ٦٢.

٩٨- بارتولد: تركستان، ص ٦٥٩.

٩٩- تختلف المصادر اختلافاً كبيراً في كتابة أسماء الأعلام المغولية، فهذا الأسم يكتب في بعض المصادر منكو، ومونكا، وفي بعضها الآخر مونككا ومانجو. رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ١٩٧، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦١- ٦٢٣، ٢٦٦،٢٨١.

١٠٠- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص١٩٧- ١٩٨، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٧٩.

١٠١- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٢.

١٠٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٢.

١٠٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٣٨.

١٠٤- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

١٠٥- Rubruck , The Journey , P.146

أيضاً بارتولد: تركستان، ص ٦٥٦-٦٥٧.

١٠٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

١٠٧- بارتولد: تركستان، ص ٦٥٧.

١٠٨- راجع النص الهام في ذلك لرشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠.

١٠٩- هيلدا هوخام: تاريخ الصين، ص ٢٣٠.

١١٠- كما يؤكد ذلك بارتولد: تركستان، ص ٦٥٨.

١١١- بارتولد: تركستان، ص ٦٥٨.

١١٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ١٩٣.

١١٣- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٠٣، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ١٩٧-٢٠٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦١.

١١٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص٢٣٤، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٥، ٢١٨.

١١٥- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص٢٣٤-٢٣٣، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٨، ٢١٩.

١١٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١١٧- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص٢٣٤، رشيد الدين: جامع التـواريخ، ص ٢١٩.

١١٨- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١١٩- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص٢٣٤.

١٢٠- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩، الجويني: جهانكـشاي، مجلـد٢ ص٢٣٤.

١٢١- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩، الجويني: جهانكـشاي، مجلـد٢ ص٢٣٤- ٢٣٥.

١٢٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٥.

١٢٣- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٥.

١٢٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٥، رشيد الـدين: جـامع التـواريخ، ص ٢١٩.

١٢٥- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

١٢٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١٢٧- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٦.

١٢٨- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩، الجويني: جهانكـشاي، مجلـد٢ ص ٢٣٦.

١٢٩- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩، الجويني: جهانكـشاي، مجلـد٢ ص ٢٣٦.

١٣٠- فلاد يمير ستوف: حياة جنكيز خان، ص ١٣٩،٨٦.

١٣١- بارتولد: تركستان، ص ٥٦٤.

١٣٢- Bretschneider , Notes on Chimese Mediaeval Travellers to The west: sI yu ki , Vol , P. 101.

١٣٣- Bretschneider , sI yu ki , Vol , P. 58.

١٣٤- بارتولد: تركستان، ص ٥٦٤.

١٣٥- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٨٠. وتذكر الرواية المغولية أنه كان ينبع من جبل قراقورم في هذا الإقليم حوالي ثلاثون نهراً.

١٣٦- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٨، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٧٩.

١٣٧- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٨، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٩.

١٣٨- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٨، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٩.

١٣٩- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٦.

١٤٠- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٧٩، الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٨.

١٤١- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٧، الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٩.

١٤٢- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٧.

٢١٠-٢٠٩ .

١٤٣- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٩ -٢١٠.

١٤٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٠.

١٤٥- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٧.

١٤٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٦٠. ويؤيده بارتولد: تركستان، ص ٦٥٧ - ٦٥٨.

١٤٦م- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٧.

١٤٧- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص١٠٣.

١٤٨- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص١٠٧.

١٤٩- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١١٣-١١٥، ١٤١.

١٥٠- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٣٠.

١٥١- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص٢٠١، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨١.

١٥٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص٢٠١، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٢.

١٥٣- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص٢٠٤، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٤.

١٥٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص٢٠٦، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٥.

١٥٥- هكذا أكدت الروايات المغولية لكل من الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص٢٣٦، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١٥٦- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص١٩٩، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٠.

١٥٧- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١٥٨- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص١٩٩، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٠.

١٥٩- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص١٩٩.

١٦٠- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٠.

١٦١- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٠.

١٦٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص١٩٩، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٠.

١٦٣- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص٥٧.

١٦٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص١٩٩، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٠.

١٦٥- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص٢٠٢، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٢.

١٦٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٧٥.

١٦٦م- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص١٩٩، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٠.

١٦٧- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص٢٠٢، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٢.

١٦٨- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٣٥.

١٦٩- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٢٥-٢٢٦.

١٧٠- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص٨٥.

١٧١- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص٢٠٣، ٢٠٩-٢١٠.

١٧٢- د. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٢٠، د. سعد الغامدي سقوط الدولة العباسية، ص ١٥٢- ١٥٣.

١٧٣- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٨. ولم توضح الرواية السريانية المقصود بعناصر المستعربين الذين كانوا ضمن سكان قراقورم.

١٧٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ص ٢٠٤.

١٧٥- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٥.

١٧٦- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٦، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١٧٧- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٦. ويذكر أنهم قدموا من مكان يسمى جرغ بخارى، ويذكر محقق كتاب جامع التواريخ أنها قرية كبيرة قرب بخارى ينسب إليها قوم من أهل العلم قديماً وحديثاً. د. فؤاد الصياد في حواشيه بجامع التواريخ، ص ٨٦ حاشية رقم ١.

١٧٨- نصوص من وليم ربرك في بارتولد:تركستان، ص ٦٩٨.

١٧٩- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٤، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١٨٠- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٢٥.

١٨١- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٤-٢٠٥، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٥.

١٨٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٣٦، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١٨٣- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٩٨، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٧٦،٧٩.

١٨٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢١٠، مجلد٢ ص٢٣٦ رشيد الدين: جامع التواريخ، ص٨٨-٨٩، ٢١٩.

١٨٥- بارتولد: تركستان، ص ٦٩٧-٦٩٨.

١٨٦-نصوص من رحلة وليم روبرك كما أوردها بارتولد: تركستان، ص ٦٩٨ وحاشية رقم ٢٠٣.

١٨٧- بارتولد: تركستان، ص ٦٨٦.

١٨٨- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٧، مجلد٢ ص٢٣٦ رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١٨٩- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص٧٦.

١٩٠- بارتولد: تركستان، ص ٦٨٦ -٦٨٧.

١٩١- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٤ - ٢٣٥، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١٩٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٤، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

١٩٣- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٧، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٥.

١٩٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٧ - ٢٢٦، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٨٦.

١٩٥- د. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٢٤.معتمداً على مصدر لم يذكره.

١٩٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ١٨٨.

١٩٧- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ١٨٨، الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٣٧.

١٩٨- الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص٢٣٧- ٢٣٨.

١٩٩- د. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٢٤.

٢٠٠-- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٩.

٢٠١-- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢١٦- ٢١٧، الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص٢٢٨.

٢٠٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٢٨- ٢٢٩.

٢٠٣-ميرخواند: روضة الصفاء، نصوص وردت في بارتولد: تركستان، ص ٦٨٦ -٦٨٧.

٢٠٤- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٢٥، بارتولد: تركستان، ص ٦٨٧.

٢٠٥- بارتولد: تركستان، ص ٦٨٧.

٢٠٦- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ١٨٨، رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ١٩٨.

٢٠٧- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٧٥- ٧٦، الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ٢٠٧.

٢٠٨- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٧٥.

٢٠٩- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٨-٣٠، ٢٠٢-٢٠٣، الجويني: جهانكشاي، مجلد١ ص ١٨٤-١٨٥، ٢٢٩.

٢١٠- النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرني، ص ٩٦.

٢١١- D'ohsson , Histoire des Mongol s , To.I , P. 260

٢١٢- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٣٥٨، ابن الصبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦٦، أيضاً براون: تاريخ الآدب في إيران، ص ٥٨٢- ٥٨٣.

٢١٣- الجويني: جهانكشاي، مجلد٢ ص ٢٣٧-٢٣٩، وأيضا د. سعد الغامدي: سقوط الدولة العباسية، ص ٢٥٣- ٢٥٤. معتمداً على مصادر ومراجع.

٢١٤- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٤٢- ٢٤٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨١، النويري: نهاية الآرب في فنون الآدب، ج ٢٧ تحقيق د.سعيد عاشور، الهيئة المصرية للكتاب ص ٣٥٣.

٢١٥- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨١. ويسمي أريق بروكا باسم أريغبوكا. أيضاً النويري: نهاية الآرب في فنون الآدب، ج ٢٧ ص ٣٥٣. ويطلق عليه اسم أرنيكا. ويؤيد شبولر الروايات التي تؤكد على أن الخان الأعظم منكو كان ينوي أن ينصب أريق بوكا خلفاً له. شبولر: العالم الإسلامي،ص ٤٩.

٢١٦- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨١. ويؤيد ذلك شبولر: العالم الإسلامي،ص ٤٩.

٢١٧- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٤٧- ٢٤٨، النويري: نهاية الآدب في فنون الآدب، ج ٢٧ ص ٣٥٣.

٢١٨- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٥٥.

٢١٩- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٤٩.

٢٢٠- عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، نقله عن الفارسية إلى العربية د.علاء الدين منصور، القاهرة ١٩٨٩، ص ٤٢١، د.فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ١٣٤.

٢٢١- شبولر: العالم الإسلامي، ص ٤٩.

٢٢٢- عباس إقبال: تاريخ إيران، ص ٤٢١، د.فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ١٣٤.

٢٢٣- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٥٠.

٢٢٤- النويري: نهاية الآدب في فنون الآدب، ج ٢٧ ص ٣٥٣.

٢٢٥- بارتولد: تركستان، ص ٦٩٩.

٢٢٦- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨١.

٢٢٧- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٥٨.

٢٢٨- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٤٩ - ٢٥٧، النويري: نهاية الآدب في فنون الآدب، ج ٢٧ ص ٣٥٣ -٣٥٤، بارتولد: تركستان، ص ٦٩٩ وما بعدها.

٢٢٩- بارتولد: تركستان، ص ٦٩٩.

٢٣٠- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٥٠.

٢٣١- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٥٥.

٢٣٢- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٥٧-٢٥٨، شبولر: الجنكزية، مقال بدائرة المعرف الإسلامية، الترجمة العربية، مجلد١٢ ص ٣٩٨.

٢٣٣- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٦٢، شبولر: الجنكزية، مقال بدائرة المعرف الإسلامية، الترجمة العربية، مجلد١٢ ص ٣٩٨.

٢٣٤- شبولر: العالم الإسلامي، ص ٥٠-٥١.

٢٣٥- ماركوبولو: رحلاته، ص ٩٨.

٢٣٦- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٢٦٧-٢٧١.

٢٣٧- هيلدا هوخام: تاريخ الصين، ص ٢٣٢.

٢٣٨- شبولر: العالم الإسلامي، ص ٤٩.

٢٣٩- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص٣١٤.

٢٤٠- رشيد الدين: جامع التواريخ، ص٣٢٠

٢٤١- شبولر: العالم الإسلامي، ص٨٨.

٢٤٢- هيلدا هوخام: تاريخ الصين، ص ٢٤٨.

٢٤٣- هيلدا هوخام: تاريخ الصين، ص ٢٥٦-٢٥٧.

٢٤٤- Morgan , The Mongols , P. 114

من المهم جداً أن نذكر أن موقع قراقورم أجريت به حفريات آثرية عام ١٩٤٨-١٩٤٩ على آيدي عالم الآثار روس.انظر:

E. D Philips , The Mongols , London 1969 , PP. 94 – 103.

مصادر ومراجع الدراسة

أولا: مصادر فارسية معربة

- الجوزجانى (ابو عمر ومنهاج الدين عثمان بن سراج الدين المعروف بمنهاج السراج): طبقات – ى – ناصرى، تحقيق عبد الحى حبيبى قندهارى، كابل ١٣٤٣ هـ. ش.

- الجوينى[١] (علاء الدين عطا ملك) ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م: تاريخ جهانكشاي، المعروف بتاريخ فاتح العالم ، نقله من الفارسية إلى العربية د.- محمد التونجي، طبعة دمشق ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، مجلدان.

---

(١) للاستزادة راجع ابراهيم أمين الشواربى: مصادر فارسية فى التاريخ الاسلامى، ط. القاهرة، ص٤-٧

- رشيد الدين [٢] (فضل الله الهمذانى) ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨م: جامع التواريخ، نقله عن الفارسية د. فؤاد عبد المعطي الصياد، وقدم له د. يحيى الخشاب، ط. بيروت (بدون تاريخ).

- النسوي (محمد بن أحمد) ت. ق ٧ هـ / ١٣م: سيرة السلطان جلال الدين منكُبرتي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، القاهرة ١٩٥٣م.

ثانيا: مصادر عربية

- ابن العبرى (غريغوريوس أبى الفرج الملطى بن آهرون) ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م: تاريخ مختصر الدول، نشر الأب أنطوني صالحاني، ط. بيروت ١٩٩١م.

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٧، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة د. فؤاد عبد المعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ثالثا: مصادر أوربية معربه

---

(٢) للاستزادة عنه راجع ابراهيم أمين الشواربى: مصادر فارسية فى التاريخ الاسلامى، ص ٧ – ١٠

- ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، نقله إلى الإنجليزية وليم مارسدن، ثم نقلها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، ضمن سلسلة الينابيع، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦ م.

رابعا / مصادر أوربية وصينية

- Willliam Rubruck, The journey of Willliam Rubruck to the east part of Asia, ed. By Dawson,entitled "the mongol mission", london 1954.

- Bretschneider(ed),Chinese Mediaeval travellers to the west: the Journey of (Cha'ng Cha'un): Si Yu Ki (1220-1221), in Mediaeval researches, London 1967,vol.1

خامسا: المراجع العربية والفارسية والأوربية المعربة

- إدوارد براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية د. إبراهيم أمين الشواربي، ط. مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤م.

- بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان مصطفى، الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- ــــــــــ: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، ط. القاهرة.

- د. السيد الباز العريني: المغول، ط. بيروت ١٩٨١م.

- د. حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، ط. دار المعارف بمصر ١٩٨٠م.

- د. سعد الغامدي: سقوط الدولة العباسية، الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

________: المجتمع المغولي ضوابطه وقوانينه، ط. الرياض ١٩٨٧م.

- د. فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، القاهرة ١٩٦٠م.

- شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى، تقديم د. سهيل ذكار، ط. دار حسان، دمشق ١٩٨١ م .

- الجنكزية، مقال دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ط. دار الشعب، مجلد ١٢.

- عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، نقله من الفارسية إلى العربية د. محمد علاء الدين منصور، القاهرة ١٩٨٩م.

- فلاديمير ستوف: حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية، نقله عن الروسية إلى الإنجليزية د. س. ميرسكي، ونقله إلى العربية د. سعد الغامدي، الرياض ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.

- هيلدا هوخام: تاريخ الصين، ترجمة محمد أشرف كيلاني (المشروع القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٢م).

سادسا: المراجع الأوربية

- Ayalon , D., The great Yasa of Jenghis Khan , Studia Islamica 1971,Vol. 33(PP.97-140),Vol. 34(PP.151-180) A&B

- Cahun, M. L. , Gengis Khan et l'empire Mongol (dans Lavisse et Ramboud: Histoire Generale , to.1)

- D'ohsson , histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'a Timour Bey ou Tamerlane, To.1-4,Amesterdam 1852
- Howorth, history of the Mongols, vol.1-4, London 1927
- Morgan,D.,The Mongols , Oxford 1986
- Pelliot,P.,Notes on Marco Polo travels , 3 vols., Paris 1959-1973,vol.1
- Philips , E. , The Mongols , London 1969.